من بلاغة التمنى بغير (ليت) في الذكر الحكيم

د. إبراهيم حسن أحمد مدرس البلاغة والنقد في الكلية

مقدمة

أحمدك اللهم أن جعلت أُنسى فى مناجاتك، ومتعتى فى تأمل عجائب كتابك، ونشوتى فى الكشف عن سرٍّ من أسرار بيانه، وهمتى فى البحث عن عما دق وخفى من وجوه إعجازه، وأُصلى وأُسلم على من رفعت بالقرآن ذكره، فأعجز ببيانك فرسان البيان، وأسر ببلاغة نظمك الإنس والجان.

ويعد:

فإن المعانى التى نعدها من باب التمنى ذات طبيعة خاصة، لأنها من المعانى التى تتعلق بها القلوب، وتشتاق إليها النفوس، سواء أكانت مستحيلة، أم بعيدة، فالمتمنِّى يتعلق بها، ويشتد تعلقه حتى ينفلت من الواقع والممكن إلى الذى مضى وما لا يمكن، ويتعلق بالمستحيل، ويتشبث بخيوط الوهم، ويصير كالظمآن الذى لا يُروى أو يُستبعد ريُّه.

ووراء التمنى فى أكثر مواقعه ظمأ لا يُروى، فهو يصف آمالاً حبيسة، ورغائب لا سبيل إلى تحقيقها، ولو كانت هذه الأمنيات ممكنة فإنها عند المتمنِّى وفى حس نفسه مما يبعد تحققها؛ لأنها من أشواق الروح وتطلعاتها التى لا تحدها حدود، فالتمنى يبث فيه المتمنِّى حاجات النفس ورغباتها، ويسكب فيه عبراته وأحزانه؛ ترويحا عن النفس وترجمة عما يجرى فى الخاطر.

وتجد هذا الأسلوب فى القرآن عظيم السلطان شديد السيطرة، فكثيراً ما نجده على ألسنة الكافرين يوم القيامة يبثون فيه أحزانهم، ويصور ندمهم وحسرتهم على فوات وقت الإيمان والعمل الصالح.

لهذا كان المقصود من هذه الدراسة، والدافع لهذا البحث؛ بيان دقائق التمنى بغير (ليت) فى الذكر الحكيم، ثم الكشف عن الفروق الدقيقة بين ألوان التمنى التى يعبر عنها بغير (ليت)، كالاستفهام، والشرط، والأمر، والترجى، وبخاصة أننى لم أجد أحداً –على حد علمى– خص هذا الموضوع بدراسة فى الذكر الحكيم.

وتبرز أهمية الموضوع فى أن التمنى فى الذكر الحكيم ظاهرة تستحق الدراسة البلاغية سواء أُدّى بالحرف الموضوع له وهو (ليت)، أم أُدّى بطرق أُخر، لأن طلب الممتنع: حديث نفس والهة تملكها الذهول واستبد بها اليأس، فاحتجب العقل والوعى،

فلم تعد تفرق بين ما هو ممكن وما هو محال، ووراء ذلك إيحاءات ثرية تنمُّ عن نفس محطمة وآمال ضائعة، والبحث -إن شاء الله- يكشف عن هذه الإيحاءات، ويبين أسرارها، ومدى ارتباطها بنفوس أصحابها، والمقامات التى اقتضتها، بما يمثل إضافة فى مجال البحث البلاغى -إن شاء الله-.

هذا: وقد جاءت خطة هذا البحث: (من بلاغة التمنى بغير (ليت) فى الذكر الحكيم) على النحو التالى :

المقدمة: وفيها أهمية الموضوع، والدافع إليه.

المبحث الأول: (مفهوم التمنى وقيمته البلاغية)، ويتضمن، تحرير مصطلح التمنى فى اللغة، وتحرير مصطلح التمنى عند البلاغيين، وصيغ التمنى، والفرق بين التمنى والترجى، والقيمة البلاغية للتمنى.

المبحث الثانى: (التمنى بطريق الاستفهام)، ويتضمن المحاور الآتية، أولاً: التمنى بـ(هل)، ويشمل المقامات الآتية: تمنى الشفعاء يوم القيامة، وتمنى الإنظار والإمهال، وتمنى الردّ إلى الدنيا، وتمنى الخروج من النار، ثانيا: التمنى بـ(أين).

المبحث الثالث: (التمنى بطريق الشرط)، ويشمل المحاور الآتية: تمنى الرجوع إلى الدنيا فى سياق سورة الشعراء، وتمنى الرجوع إلى الدنيا فى سياق سورة الزمر، وتمنى الرجوع إلى الدنيا فى سياق سورة البقرة، حروف التنديم والتحضيض.

المبحث الرابع: (التمنى بطريق الأمر)، ويتضمن المحاور الآتية، أولاً: تمنى الرجوع إلى الدنيا، ثانياً: تمنى التأخير والإمهال، ثالثاً: تمنى الخروج من النار، رابعاً: تمنى الماء أو الرزق، خامساً: تمنى الموت والهلاك.

المبحث الخامس: (التمنى بطريق الترجى)، ثم **الخاتمة**، وفيها: أهم نتائج البحث، ثم أهم المصادر والمراجع، ثم الفهرس.

وينبغى أن نؤكد على أن المعالجة البلاغية للموضوعات القرآنية تتضاعف صعوبتها من حيث حاجتها إلى التناهى فى الدقة والالتزام؛ خشية أن يخط القلم ما تزل به القدم، كما أن القرآن الكريم كتاب الله المعجز ، وهو الذى لا تفنى عجائبه، ولا تنقضى غرائبه، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا يحيط بأسراره إلا العليم الخبير.

ومن هنا فلا أدعى لنفسى أننى بلغت فى بحثى هذا درجة الكمال، فالكمال لله وحده، ولكنى اجتهدت قدر طاقتى، والله أسأل أن يقيل عثراتى، ويغفر زلاتى، وهو الهادى إلى سواء السبيل.(ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم)

الدكتور
إبراهيم حسن أحمد
مدرس البلاغة والنقد جامعة الأزهر

المبحث الأول
مفهوم التمنى وقيمته البلاغية

تحرير مصطلح التمنى فى اللغة :

الناظر فى معاجم اللغة يجد أن التمنى يدور معناه حول الرغبة والإرادة والطلب.فالتمنى: السؤال للرب فى الحوائج. والمُنى بضم الميم : جمع المُنية، وهو ما يتمنى الرجل. والأمنية: أُفعولة وجمعها الأمانى ، ويقال: مُنية على فُعلة وجمعها: مُنًى. والتمني: تشهى حصول الأمر المرغوب فيه وحديث النفس بما يكون وبما لا يكون . وتمنيت الشيء:أحببت أن يصير إلى. وتمنَّى الشيء: أراده.[١]

تحرير مصطلح التمنى عند البلاغيين :

التمنى نوع من الإنشاء الطلبي، وقد عرفه سعد الدين التفتازانى بقوله: "التمنى هو طلب حصول شيء على سبيل المحبة "[٢]، وعرفه ابن يعقوب المغربى بقوله: "هو طلب حصول الشيء بشرط المحبة ونفى الطماعية فى ذلك الشيء[٣] ومن ذلك يتضح أن التمني: هو طلب أمر محبوب مع عدم الطماعية فى حصوله، إما: لكونه مستحيلا- والإنسان كثيرا ما يحب المستحيل ويطلبه- وإما: لكونه ممكنا غير أنه بعيد لا يطمع فى نيله[٤].

---

(١) القاموس المحيط للفيروزآبادى جـ ٤، ص ٣٩٢، مادة(منى) ، بدون ناشر، لسان العرب لابن منظور، جـ ٥، صـ ٢٩٤، مادة (منى) ، دار صادر بيروت، ١٤١٤ه١٩٩٤م

(٢) مختصر سعد الدين التفتازانى على تلخيص المفتاح جـ٢، صـ ٢٣٩(ضمن شروح التلخيص)، طبعة دار السرور، بيروت.

(٣) مواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح، لابن يعقوب المغربى، جـ٢، صـ ٢٣٩.

(٤) ينظر: معجم البلاغة العربية، للدكتور/ بدوى طبانة، جـ ٢، صـ٨٥٧، منشورات جامعة طرابلس١٣٩٧هـ١٩٧٧م، دلالات التراكيب: للدكتور/ محمد أبو موسىصـ١٩٤، مكتبة وهبة، ط. الثانية، ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م، علم المعانى، للدكتور/ عبد العزيز عتيق، صـ١١٢.ط.دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٥هـ١٩٨٥م، علم المعاني: للدكتور/ بسيونى فيود، جـ٢، صـ ١٥٥، ط.أولى.١٤٠٨هـ١٩٨٨م.

والمعانى التى نعدها من باب التمنى تتعلق بها القلوب وتشتاق إليها سواء كانت مستحيلة أم بعيدة، فتمنى الأمر المحبوب الذى لا طمع فيه، لكونه مستحيلا يبدو جليا فى قول الشاعر:

ألا ليت الشباب يعود يوما فأخبره بما فعل المشيب

فالأمر المتمنى فى البيت لا طمع فى حصوله، لأنه مستحيل الوقوع ،لتعلقه بما مضى ، ثم إننا لا نرى الشاعر قصد إلى إبراز رغبته فى عودة الشباب وأيامه الحلوة المرحة فحسب ، بل ضمن ذلك مشاعر الأسى والتحسر والشكوى من الشيب وما صحبه من ضعف فى البدن ، وعجز عن الاستمتاع بالحياة، وإحساس مخيف يلاحقه دائما بالنهاية المحتومة، وعزوف الناس والخلان عنه، فالتمنى فى البيت وسيلة عبر بها الشاعر عن آلامه وضيق نفسه، وصور هذا فى تصريحه بالشكوى فى قوله: (فأخبره بما فعل المشيب).

وتمنى الأمر المحبوب الذى يمكن حصوله ولكنه غير مطموع فيه، لبعد مناله يبدو واضحا فى قول بعض الناس: ليت لى مالا فأحج منه، ليتنى ألقى فلانا فأنتفع بعلمه، والبعد هنا بعد نفسى مرده إلى شعور النفس وإحساسها بذلك الشيء، وقد لا يكون بعيدا بالنسبة للواقع، أو العرف، أو العقل، أو الغير ، ومثله فى تمنى الممكن البعيد الحصول،إظهارا للشكوى قول المتنبي:

فيا ليت ما بينى وبين أحبتي من البعد ما بينى وبين المصائب

فقد تكاثرت عليه المصائب ولازمته ملازمة دائمة، فى حين جفاه أحبته وابتعدوا عنه، فتمنى أن لو كان أحبته قريبين منه قرب المصائب . وليس قرب الأحبة بالشيء البعيد ، ولكن طول الجفاء ولّد لديه شعورا باليأس والمرارة بثه فى صيغة التمني، وحسبك أنه لا يشكو من حلول المصائب به ولا يعاف قربها، وإنما يتمنى أن يكون أحبته على نفس الدرجة من القرب، وحينئذ فلن يبالى بما يلقاه من النوائب، فالتمنى هنا لما هو ممكن ولكنه فى عداد البعيد غير المطموع فى حصوله.[1]

---

[1] ينظر علم المعانى للدكتور/ فريد النكلاوي وآخرين صـ٩١، ٩٠.

صيغ التمني:

اللفظ الذى يدل بأصل وضعه اللغوى على التمنى هو(ليت) وهو حرف يتعلق بالمستحيل غالبًا[١]،كما فى قول الشاعر:

ليت النجوم تدنو لى فأنظمها عقود مدح فما أرضى لكم كلمى

وقول ابن الرومي فى شهر رمضان:

فليت الليل فيه كان شهرا ومر نهاره مر السحاب

فالأمر المتمنى فى البيتين جاء بصيغة التمنى الأصلية وهى (ليت)، وقد أفادت (ليت) عدم الطمع فى نيل المتمنَّى فى البيتين، لكونه مستحيل الوقوع.

وقد يتمنى بثلاث صيغ أخر هي: (هل) و(لعل) و(لو)، لغرض بلاغى يقصده المتمنى وينشده "وهذا الغرض فى (هل) و(لعل) هو إيراز المتمنى فى صورة الممكن القريب الحصول، لكمال العناية به والتشوق إليه، والغرض فى (لو): الإشعار بعزة المتمنى وندرته، لأن المتكلم يبرزه فى صورة الممنوع، إذ إن (لو) تدل بأصل وضعها على امتناع الجواب لامتناع الشرط"[٢].

وأعظم مواقع التمنى ما أفيد بأدوات ليست موضوعة للدلالة عليه أصالة فيصاحبها من ظلال معانيها الوضعية ما يكشف عن أغراض المتكلم وإيماءاته، وفى ضوء هذه العبارة سنعرض بقليل من التفصيل للتمنى المفاد بـ(هل) و(لعل) و(لو)، لنتلمس خصوصيات التمنى بهذه الصيغ التى لم توضع أصالة للتمنى.

أولا: التمنى بـ(هل):

التمنى طلب قلبى أو هو كما يقول اللغويون[٣]: حديث النفس، والإنسان حين يحدث نفسه لا يضع خطا فاصلا بين الممكن والمحال، وكثيرا ما يتغلب المرء على عجزه

---

[١] ينظر مغنى اللبيب، لابن هشام، ت. د/مازن المبارك، د/ محمد على حمد الله، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٥م، صـ٣٧٥.

[٢] معجم البلاغة العربية للدكتور/ بدوى طبانة، جـ٢، صـ٨٥٨، وينظر: علم المعانى للدكتور/ عبد العزيز عتيق، صـ١١٣، ودلالات التراكيب للدكتور/ محمد أبو موسى صـ ٢٠١، ٢٠٢، علم المعانى للدكتور/ بسيونى فيود، جـ٢، ص١٥٨، ١٥٩.

[٣] ينظر: لسان العرب مادة (منى).

ويأسه بإطلاق العنان لخياله فيرى مالا سبيل إلى كونه كائنا، وهو بذلك يسرى عن نفسه ويخفف عنها من شقائها، وبقدر استغراقه فى أحلامه وأوهامه يستعمل أدوات التمنى.

و(هل) موضوعة للاستفهام، وهو يقتضى عدم العلم بالمستفهم عنه ثبوتا أو نفيا، فإذا استعملت فى المتمنَّى المقطوع بانتفائه كان ذلك قرينة على تضمنها لمعنى التمنى وإفادتها له، مثال ذلك ما جاء فى قول ابن الرومي:

أأيام لهوى هل مواضيك عود وهل لشباب ضل بالأمس منشد

فالشاعر يريك لهفته الشديدة إلى ماضى أيامه واستغراقه التام فى ذكرياتها المحببة إلى نفسه حتى توهم من فرط الاستغراق أن ذلك من الممكن الذى لا يستبعد نيله فاستعمل فى التمنى (هل) الموحية بالإمكان، وحاول أن يوهم نفسه بأن عودة شبابه وأيامه أمر مترقب ممكن الحصول، فهو كالغائب المنتظر عودته، أو التائه المرجو العثور عليه، ألا ترى إلى قوله: (ضل) وإيثاره على الفعل (ولّى) مثلا ؟ثم ألا ترى إلى قوله: (بالأمس) وكيف يستحضر البعيد فيبدو قريبا لم يطل زمن فراقه ؟ .[1]

إن شوق الشاعر لشبابه وأيام لهوه قد غلب على نفسه حتى صارت من فرطه تفترض غير الواقع واقعا لتستروح بهذا الأمل الموهوم، فالتمنى ب(هل) فى قول ابن الرومى وإن أفاد معنى (ليت) إلا أنك واجد فيه فرقا بينهما، ذلك هو أن (هل) أداة استفهام، والاستفهام يكون فى الأمور الممكنة، وكون المراد بها هنا: التمنى لا يعنى أنها انفكت عن الاستفهام وأنها أفرغت منه إفراغا تاما، لأن ذلك لا يكون فى الكلمات، وإنما يبقى فيها الإيحاء بأن ما دخلت عليه أمر ممكن، وهذا يفرغ على التمنى لونا آخر يجعله فى صورة الممكن، وهذه فائدة جديدة للتمنى لا نجدها لو أن ابن الرومى أتى بأداة التمنى (ليت)[2]

والحكم بالإمكان والإحالة فى التمنى أمر نسبى تحكمه ظروف المرء وعصره وبيئته، فما يبدو ممكنا فى زمن قد يكون محالا فى زمن آخر، وما يكون بعيدا بالنسبة إلى شخص قد يكون قريبا من شخص آخر، وانظر إلى ما حكاه صاحب لسان العرب:

---

[1] ينظر: علم المعانى للدكتور/ فريد النكلاوى وآخرين، صـ٩٣، بدون ناشر.

[2] ينظر دلالات التراكيب، للدكتور/ محمد أبو موسى، صـ٢٠١.

كتب عبد الملك إلى الحجاج: يا بن المتمنية، أراد: أمه، وهى القريعة بنت همام، وهى القائلة:

هل من سبيل إلى خمـر فأشـربها أم هل سبيل إلى نصر بن حجـاج

وكان نصر رجلا جميلا من بنى سليم يفتتن به النساء فحلق عمر رأسه ونفاه إلـى البصرة.(١)

ومغزى القصة أن القريعة سميت متمنية بسبب هذا البيت، والتمنـى هنـا واقـع بـ(هل) ، والذى جعل شرب الخمر والوصول إلى هذا الفتى الجميل أمنية بعيدة المنال هو العصر الذى عاشت فيه القريعة، وضرب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بيد مـن حديد على كل يد آثمة، أفترى هذا يكون بمثل هذا البعد وتلك الإحالة فى عصر ملـوك بنى أمية؟

وحالة العشق والهيام والرغبة الجامحة لدى المتمنية هى التى جعلتها تبرز متمناها فى صورة الممكن، حتى لا تركن إلى اليأس فى طلب ما تسعى إليه.

والمتكلم مهما حاول أن يوهم نفسه بإمكان ما ليس ممكنا فإن لسانه يتفلت بما يـدل على يقينه الذى يداريه ويأسه من حصول مبتغاه، والدليل على ذلك ما نراه فـى قـول المتمنية: (هل من سبيل إلى خمر فأشربها) فإن (من) لا تزاد إلا فى الاستفهام المنقـول إلى النفي، وكأنها تجزم بانتفاء شرب الخمر، وبقدر إحساس المرء تقع كلماته، وكـأنى بالقريعة تستبعد السبيل إلى شرب الخمر بعد أن قطع عمر-رضى الله عنه- كل سـبيل إليها، وترى الوصول إلى نصر بن حجاج أقل بعدا، فزادت (من) أولا، وتركتها ثانيا(٢)

اتضح لنا أن التمنى - كما يقول اللغويون- حديث النفس بما يكون وما لا يكـون، ورغائب النفوس ومشتهياتها ليست مقيدة بحدود الإمكان، وبقدر استغراق المتمنى فـى أحلامه وأوهامه يستعمل أدوات التمنى فيستبدل (ليت) ب(هل)، إبرازا لغير الممكن فى صورة الممكن. يقول سعد الدين التفتازاني: ((والنكتة فى التمنى ب(هل)، والعدول عن (ليت) هو إبراز المتمنّى لكمال العناية به فى صورة الممكن الذى لا جزم بانتفائـه)(٣)،

---

(١) لسان العرب لابن منظور، مادة (منى) .

(٢) ينظر علم المعانى للدكتور/ فريد النكلاوى وآخرين ص٩٤، ٩٥.

(٣) مختصر السعد على تلخيص المفتاح، حـ٢، صـ ٢٤٠. (ضمن شروح التلخيص) .

ويقول ابن يعقوب المغربي: "والسر فى العدول عن (ليت) التى هى الأصل فى التمنى إلى (هل) فى نحو هذا الكلام: إبراز المتمنى فى صورة المستفهم عنه الذى لا جزم بانتفائه، لإظهار كمال العناية به حتى لا يستطاع الإتيان به إلا فى صورة الممكن الذى يطمع فى وقوعه" (١).

واستعمال (هل) فى التمنى ــ كما ذكر الدسوقى ــ من باب التجوز الواقع فى معنى الحرفين على سبيل الاستعارة التبعية، حيث يشبه مطلق التمنى بمطلق الاستفهام بجامع مطلق الطلب ثم يسرى التشبيه من الكليات إلى الجزئيات فتستعار (هل) الموضوعة للاستفهام الجزئى للتمنى الجزئى(٢)

ثانيا: التمنى بـ(لعل) :

الأصل فى (لعل) أن يرجى بها ما هو قريب الحصول، وقد تأتى مفيدة لمعنى التمنى كما فى قول الشاعر:

أسرب القطا هل من يعير جناحه لعلى إلى من قد هويت أطير

فطيران الشاعر إلى من يهوى على جناح طائر مستعار أمر محال لا طمع فى حصوله، وهذا يقتضى استعمال (ليت)، لكن الشاعر أرانا إياه ممكنا فى عدوله عن حرف التمنى إلى حرف التوقع (لعل)، فإيثار الشاعر لحرف التوقع بدلا من حرف التمنى فيه إبراز للمستحيل فى صورة الممكن، إبرازا لكمال عنايته بهذا الأمر، وإظهارا لشوقه الجارف الذى يخترق به حجب المستحيل ويتخطى به عوائق العجز البشرى، فآثر لذلك حرف الترجى ليتعانق مع التمنى بـ(هل) الاستفهامية فى قوله: (هل من يعير جناحه) فإذا كانت إعارة الجناح أمرا ممكنا، فلم لا يكون طيرانه بهذا الجناح ممكنا كذلك؟(٣).

ويقول الدكتور/هاشم محمد هاشم: "(لعل) هنا لا يصح أن تكون للترجى؛ لأن طيرانه بجسمه إلى من يهوى مع أنه لا جناح له أمر بعيد الحصول، بل مستحيل، ولذا كان معناها: التمنى، ونكتة العدول عن التمنى بـ(ليت) إلى التمنى بـ(لعل): الإشعار بأن المتمنَّى قريب الحصول، وإظهاره فى صورة الممكن المتوقع حصوله، لشدة الرغبة فيه"(٤).

---

(١) شرح ابن يعقوب المغربى على تلخيص المفتاح، جـ٢، صـ٢٤٠ (ضمن شروح التلخيص).

(٢) ينظر: حاشية الدسوقى (ضمن شروح التلخيص) جـ٢، صـ٢٤٥.

(٣) ينظر: علم المعانى للدكتور/ فريد النكلاوى وآخرين، صـ٩٦.

(٤) من أسرار التعبير بالحروف المشبهة بالفعل فى القرآن الكريم، صـ١٢٥، ط أولى، ١٩٩٤، بدون ناشر.

وقد أشار شراح التلخيص إلى أن دلالة (لعل) على التمنى من مستتبعات التراكيب[١]، فقد علق السعد على عبارة الخطيب:"وقد يتمنى بـ(لعل) فتعطى حكم (ليت) نحو:لعلى أحج فأزورك بالنصب، لبعد المرجو عن الحصول"[٢]. قال السعد:" وبهذا يشبه المحالات والممكنات التى لا طماعية فى وقوعها فيتولد منه معنى التمنى"[٣].

ونلاحظ هنا أن الخطيب وشراحه جروا على تشبيه المرجو بالمحال، لبعد الحصول، بخلاف(هل) و(لو) المستعملتين فى التمنى، حيث يشبه معنى(ليت) بمعنى(هل) و(لو)، لتحقيق الغرض من إبراز المتمنى فى صورة الممكن، أو الممتنع، وكان يجب أن يقال هنا: شبه المحال بالممكن لإبراز الميئوس منه فى صورة المطموع فيه إظهارا لكمال الرغبة وتفاؤلا بوقوع المرغوب فيه-كما فى قول الشاعر المذكور- وهو ما صرح به العصام فى الأطول فقال:" والأقرب أن يتمنى بـ(لعل)، لقرب المتمنى من الحصول فكأنه قريب من الرجاء"[٤].

ثالثا: التمنى بـ(لو):

إذا كان التمنى قد يفاد بـ(هل) و(لعل)، إبرازا للمحال فى صورة الممكن، فإننا نجد أن التمنى قد يفاد بـ(لو) فى عكس ذلك، فتجىء (لو) دالة على التمنى، لإبراز المتمنى فى صورة الممتنع؛ تجسيدا لليأس من حصوله،مثال ذلك قول جرير:

ولّى الشباب حميدة أيامه لو كان ذلك يشترى أو يرجع

ولعلك تشعر بشدة استحالة المتمنى فى البيت، وهو رجوع الشباب، وازدياد بعده عن قولك: ليت الشباب يعود، ومرد ذلك إلى أن (لو) حرف امتناع[٥].

وقد جاءت (لو) فى قول جرير لتعكس إحساسه بواقعه الأليم، وتحد من جنوح خياله فيصبغ أمنيته بمشاعر اليأس من تحقيقها، وقد مهد لذلك بالفعل (ولّى)، إيماء إلى

---

[١] ينظر: حاشية الدسوقى، جـ٢، صـ٢٤٥.

[٢] تلخيص المفتاح، للخطيب، (ضمن كتاب شروح التلخيص) جـ٢، صـ٢٤٥.

[٣] مختصر السعد على التلخيص، جـ٢، صـ٢٤٥، وينظر: مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربى، جـ٢، صـ٢٤٦.

[٤] الأطول للعصام، صـ٢٣٤.

[٥] ينظر الإيضاح للخطيب القزوينى، بشرح عبد المتعال الصعيدى، جـ٢، صـ٣٣.

أن ما مضى ليس بعائد، وإنما هى عبرات يسكبها حزنا عليه، وزفرات يخفف بها من حدة آلامه، وقارن ذلك- إن شئت- بقول ابن الرومى السابق:

أيام لهوى هل مواضيك عود وهل لشباب ضل بالأمس منشد

فإنك تحس بأن الأول أبعد فى المشيب وطال زمن اغترابه عن الشباب، فأيقن بعدم العودة ويئس من رجوعه فكان تعبيره بـ(لو) و(ولى) متساوقا مع هذا الشعور ، أما الأخير فلا يزال حديث عهد بالشباب، وكأنه فى بداية المشيب، ولا تزال أحلام الشباب تراوده، فعكس أمنيته فى صورة الاستفهام، وعبر عن تولى الشباب بالفعل(ضل) وهو مأمول العثور عليه، وتصريحه (بالأمس) دليل على قرب افتراق الشباب[١].

فمجيء (لو) فى التمنى يشعر بعزة المتمنى واليأس من وقوعه،" ويظهر هذا فى المثال المشهور (لو تأتينى فتحدثنى) بنصب(فتحدثنى) فإن(لو) بمعنى(ليت)، والفرق بين هذا وقولنا:(ليتك تأتينى فتحدثنى) هو...استبعاد الإتيان أكثر مع (لو) التى هى حرف امتناع لوجود"[٢].

واستعمال (لو) فى التمنى مجاز بالاستعارة التصريحية التبعية، إذ يشبه المستبعد بالممتنع بجامع عدم الحصول فى كل منهما، فتستعار (لو)؛ للإشعار بعزة المتمنى واليأس من وقوعه.

الفرق بين التمنى والترجى:

تبين فيما سبق أن التمنى فى اصطلاح البلاغيين: هو طلب حصول الشيء على سبيل المحبة مع عدم الطماعية فى حصوله، وقد تضمن هذا الحد قيدين، الأول: اشتراط المحبة، لإخراج ما عدا التمنى من أنواع الطلب، إذ لا يشترط فيها ذلك، والثانى: عدم الطماعية فى وقوعه، وبه خرج الترجى عند من يرى أنه طلب، لأن المرجو متوقع الحصول، وجمهور البلاغيين على أن الترجى ليس طلبا[٣]، وقد حده صاحب المطول بقوله: "إنه ارتقاب شيء لا وثوق بحصوله، فمن ثمت لا يقال: لعل الشمس تغرب، ويدخل فى الارتقاب الطمع والإشفاق، فالطمع: ارتقاب المحبوب، نحو:

---

[١] ينظر: علم المعانى للدكتور/ فريد النكلاوى وآخرين، صـ٩٩.

[٢] دلالات التراكيب للدكتور/محمد أبو موسى، صـ ٢٠٢.

[٣] ينظر: علم المعانى للدكتور فريد النكلاوى وآخرين، صـ٩٩.

لعلك تعطينا، والإشفاق: ارتقاب المكروه، نحو: لعلى أموت الساعة، وبهذا ظهر أن الترجى ليس بطلب"[١].

والأصل فى الترجى أن يكون فى الممكن المتوقع الحصول بخلاف التمنى الذى يكون فى المستحيل أو الممكن الذى لا يتوقع حصوله، فالترجى فيه طمع بخلاف التمنى، ولقرب معنى الطمع من الرجاء قال الزمخشرى فى(لعل): "وقد جاءت على سبيل الإطماع فى مواضع من القرآن، ولكن إطماع من كريم رحيم إذا أطمع فعل ما يُطمع فيه لا محالة؛ لجرى إطماعه مجرى وعده المحتوم وفاؤه، والإطماع: الإيقاع فى الطمع، وذلك لقرب الطمع من الرجاء، فكأن الإطماع هو الترجية"[٢].

وقد فرق التنوخى بين الترجى والتمنى فذكر أن التمنى يكون معشوقا للنفس والمرجو قد لا يكون كذلك، ويكون المرجو متوقعا والمتمنى قد لايكون كذلك[٣]، وجاء فى الإتقان:" نقل القرافى فى الفروق:الإجماع على أن الترجى إنشاء، وفرق بينه وبين التمنى، بأنه فى الممكن، والتمنى فيه وفى المستحيل، وبأن الترجى فى القريب والتمنى فى البعيد، وبأن الترجى فى المتوقع والتمنى فى غيره، وبأن التمنى فى المعشوق للنفس والترجى فى غيره"[٤].

فإذا كان الممكن غير مطموع فى حصوله كان طلبه تمنيا، وإذا كان الممكن مطموعا فى حصوله ونيله كان طلبه ترجيا وعندئذ تستعمل فيه الألفاظ الدالة على الترجى، ومن ذلك قوله-تعالى-:{وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى}[٥]، وقوله-عز وجل-:{فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين}[٦].

---

(١) المطول للسعد الدين التفتازانى، صـ٢٢٦.

(٢) الكشاف للزمخشرى، جـ١، صـ٢٢٩، وينظر: حاشية السيد على الكشاف، جـ١، صـ٢٢٩، حاشية الشهاب، جـ٢، صـ١٣.

(٣) ينظر: من أسرار التعبير بالحروف المشبهة بالفعل، للدكتور/ هاشم محمد هاشم، نقلا عن الأقصى القريب للتنوخى، صـ٨، ٧.

(٤) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى، ت، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط، القاهرة، دار الحديث، جـ٣، صـ٢٤٥.

(٥) عبس: ٤، ٣.

(٦) المائدة: ٥٢.

وكون الممكن مرجو الحصول مطموعا فيه، أو بعيد الحصول لا طمع فيه، مرده إلى نفس المتكلم وإحساسه، فمثلا إذا كنت تطلب حصوله وتتوقعه وتطمع فى وجوده ونيله قلت مترجيا: لعل لى مالا فأحج به ، وإن كنت غير متوقع له ولا طمع لك فى حصوله ونيله قلت متمنيا: ليت لى مالا فأحج به. يقول الدكتور/ أبو موسى:" التمنى هو طلب حصول الشيء على سبيل المحبة، والشيء المطلوب يكون فى التمنى دائما غير متوقع، ويدخل فيه ما لا سبيل إلى تحقيقه، فإذا كان المطلوب الممكن متوقعا كان الكلام ترجيا والعبارة عن ذلك تكون بـ(لعل، وعسى)، فإذا قلت: لعل زيدا يجيء كان وراء ذلك إحساس بأن مجيء زيد من الأمور المتوقعة. الفرق بين التمنى والترجى فى المطلوب الممكن هو فى حقيقته فرق بين نوعين من أنواع الإحساس، أما غير الممكن فلا يأتى فيه الترجى"[١].

القيمة البلاغية للتمنى:

التمنى طلب قلبى، أو هو كما يقول أهل اللغة: حديث النفس وترجمة عما يجرى فى الخاطر، فالتمنى يبث فيه المتمنِّى حاجات النفس ورغباتها، ويسكب فيه عبراته وأحزانه، وقد أحسن ابن يعقوب المغربى الكشف عن الحالة النفسية للمُتمنِّى، والأغراض التى يرمى إليها من وراء طلبه لما يدرك أنه لايكون فقال: " إن أصل التمنى إظهار الرغبة فى الفائت مضيا أو استقبالا، إما لمجرد الاعتذار والاستعطاف للمخاطب ليرحم المتمنِّى، وإما لمجرد موافقة الخاطر والترويح عن النفس"[٢].

إنها لمحة ذكية تجاوز بها ابن يعقوب حقيقة التمنى إلى ما يهدف إليه المتمنى من الشكوى والاستعطاف والاعتذار وما يجده من راحة النفس، فما التمنى سوى زفرات يطلقها مهموم يائس، ونفثات مصدور يروح بها عن نفسه.

والتمنى أسلوب يستحق الدراسة البلاغية سواء أدى بالحرف الموضوع له أم بغيره، لأن طلب الممتنع حديث نفس والهة تملكها الذهول واستبد بها اليأس فاحتجب العقل والوعى فلم تعد تفرق بين ما هو ممكن وما هو محال ووراء ذلك إيحاءات ثرية تنم عن نفس محطمة وآمال ضائعة.

---

[١] دلالات التراكيب، صـ١٩٤.

[٢] مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربى، جـ٢، صـ٢٤٠.

يقول الدكتور/محمد أبو موسى:"إن المعانى التى نعدها من باب التمنى ذات طبيعة خاصة فهى من المعانى التى تتعلق بها القلوب وتشتاقها سواء أكانت بعيدة أم مستحيلة، ثم إن البعد فيها ربما لا يكون بعدا بالنسبة للواقع أو العرف أو العقل، وإنما هو بعد من حيث إحساس النفس به.....،وهذه حالة من حالات النفس، وهى ليست متعارضة مع ما نشير إليه من أن شدة الرغبة وعظيم التعلق يوهم أن غير الواقع واقع وأنه دنا فى الأوهام حتى لتكاد تلمسه الأيدى، لأن هذه الحالة الثانية أشبه بالحلم الذى يدنى البعيد، والحالة الأولى حالة إحساس بالبعد ، ويتضح ذلك بتحليل السياق ، فقد يغلب على النفس الإحساس باليأس فتستبعد القريب، وقد يغلب الشعور بالأمل فيقرب البعيد.

وطبيعة المعنى فى باب التمنى مما يجعله من الأساليب ذات الوقع والتأثير، لأنك فى مواقعه تجد نفسا ظمئة إلى شيء ثم إن ظمأها ظمأ لا يروى أو يستبعد ريه..،إن إيغال الرغائب فى البعد مما يزيد النفس بها تحرقا واستعارا....،ورغائب النفوس ومشتهياتها ليست مقيدة بحدود الإمكان، وفرق بين الآمال التى يراد تحقيقها واتخاذ الوسائل إليها وهى بالطبع خاضعة للتفكير والإمكان وبين أشواق الروح وتطلعاتها التى لا تحدها حدود.

وقد أدرك ابن يعقوب المغربى القيمة النفسية لهذا الأسلوب حين ذكر أن تمنى مالا سبيل إليه قد يكون للاستعطاف أو للاعتذار وما شابه ذلك، وقد يكون-وهذا هو المهم- (لمجرد موافقة الخاطر والترويح عن النفس) أى: إن التعبير عن هذه المتمنيات حين لا يكون القصد منه إحداث التأثير فى موقف معين يكون الغرض منه هو نفس التعبير والترجمة عن هذه الخواطر الحبيسة، والغناء بهذه الأحلام البعيدة فإن ذلك مما يروح عن النفس ويطرح عنها أثقالا وأوزارا"[1].

وستبرز الدراسة-إن شاء الله- القيمة البلاغية للتمنى بغير (ليت) بصورة أشمل وأوسع عند الحديث عن كل صورة من صور التمنى، لنجلى قيمتها وأسرارها البلاغية فى ثوب التحليل والتطبيق على البيان القرآنى المعجز.

---

[1] دلالات التراكيب، صـ١٩٥ـ١٩٩.

المبحث الثانى
التمنى بطريق الاستفهام

تبين فيما سبق أن الأداة الموضوعة للتمنى هى: (ليت)، وأنها فى استعمالات القرآن الكريم لم تفد معنى سوى التمنى. يقول الدكتور/ محمد أبو موسى: "وإذا كنا نجد أدوات الاستفهام والنهى والنداء وغيرها تخرج عن معانيها الأصلية وتستعمل فى معان أُخر، فإننا لا نجد الأمر كذلك فى التمنى، وإنما يتكلم البلاغيون فيه عن إفادة التمنى بغير أداته الأساسية التى هى (ليت)، ولم يتكلموا عن إفادة (ليت) معانى غير التمنى، ولعل هذا لعراقتها فى التمنى، وأنها لم تتخلص منه، ولم تجر فى غير هذا المعنى القلبى الحميم".[١]

وإذا كانت (ليت) لا تفيد فى استعمالات القرآن الكريم إلا معنى التمنى، فإن هذا المعنى قد يفاد بألفاظ أُخر غير (ليت)، لأغراض بلاغية، ومن هذه الألفاظ: أدوات الاستفهام مثل: {هل، وأين}.

وقد لحظ البلاغيون[٢] فروقا نفسية دقيقة بين ألوان التمنى التى يعبر عنها بغير (ليت)، فدلالة التمنى بطريق الاستفهام تبرز المستحيل أو البعيد الحصول فى صورة المستفهم عنه الممكن الوقوع، وهذا ينبئ بكمال العناية به وشدة الرغبة فى وقوعه.

وأحسن مواضع التمنى وأجملها ما أُفيد بأدوات ليست موضوعة للدلالة عليه أصالة فيصاحبها من ظلال معانيها الوضعية ما يكشف عن أغراض المتكلم وإيماءاته، ومن هذه الأدوات أدوات الاستفهام التى سنعرض لها فى الصفحات التالية:

أولا: التمنى بـ (هل) :

وُضعت (هل) للاستفهام[٣]، وهى تقتضى عدم العلم بالمستفهم عنه ثبوتا أو نفيا، فإذا استعملت فى الأمر المقطوع بانتفائه كان ذلك دلالة واضحة على تضمنها لمعنى

---

(١) دلالات التراكيب: صـ٢٠٠.

(٢) ينظر: شروح التلخيص، جـ٣، صـ٢٤٠.

(٣) ينظر: الإتقان فى علوم القرآن، للسيوطى، جـ٢، صـ٢٥٣.

التمنى وإفادتها إياه، وهى حينئذ أكثر ما تكون على لسان الكافرين يوم القيامة، وأمانى الكافرين يوم القيامة كثيرة ومتنوعة نذكر منها ما يأتى:

تمنى الشفعاء يوم القيامة :

من أمانى أهل النار يوم القيامة: تمنى الشفعاء الذين يشفعون لهم من النار، مثال ذلك ما جاء فى قوله -تعالى-:)هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)[1]

فهذه الآية الكريمة تصور مشهدا من المشاهد التى سيعيشها المكذبون يوم القيامة، فليس أمامهم بعد كفرهم وتكذيبهم إلا معاينة صدق ما كذبوا به، وهو ماثل بين أيديهم ومن خلفهم، ويومئذ سيؤمنون بما كفروا به من قبل ولكن بعد فوات الأوان، حيث لا ينفعهم الإيمان الأخروى، فيتمنون ساعتها الشفعاء ليشفعوا لهم ويتمنون الرد إلى الدنيا ليصلحوا ما أفسدوه، وما لأمانيهم من سبيل، يتبين لهم هذا بعد إدراكهم أنهم قد خسروا أنفسهم، وأن شركاءهم ما كانوا إلا وهما من أكذب الأوهام، وأن الرد إلى الدنيا لا سبيل إليه.

وقد ورد فى هذه الآية استفهامان، الأول: (هل ينظرون إلا تأويله)، وهو استفهام يفيد النفى، أى: ما ينظرون إلا تأويله، والتأويل فى الأصل بمعنى: عودة الشىء إلى مآله وحقيقته، والتأويل: هو الكشف والظهور، وقد استعمل هنا مجازا حيث شبه ظهور ما أنبأ الله عنه أنه سيكون من أحداث يوم القيامة، بالشرح والبيان لمعنى الكلام الغامض، بجامع إزالة الخفاء فى كل، فهو استعارة تصريحية أصلية، والكلام مستعمل فى التهديد والإنذار والوعيد.[2]

وفصلت جملة: (يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق) عما قبلها، لأنها منها بمنزلة عطف البيان، فبين الجملتين كمال اتصال، والنسيان مجاز عن الإعراض والصد، والجامع هو عدم الاكتراث فى كل، "والذين نسوه هم المشركون، وهم معاد ضمير (ينظرون)، فكان مقتضى الظاهر أن يقال:

---

[1] الأعراف: ٥٣.

[2] ينظر: د/ عبد العظيم المطعنى: التفسير البلاغى للاستفهام فى القرآن الحكيم، جـ ، صـ

{يقولون} إلا أنه أظهر بالموصولية، لقصد التسجيل عليهم بأنهم نسوه وأعرضوا عنه وأنكروه، تسجيلا مرادا به التنبيه على خطئهم والنعى عليهم بأنهم يجرون بإعراضهم سوء العاقبة لأنفسهم".[١]

والاستفهام الثانى فى قوله -تعالى-: (فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل)، وهو يفيد التمنى، يقول الزركشى: "حملت (هل) على إفادة التمنى، لعم التصديق بوجود شفيع فى ذلك المقام، فيتولد التمنى بمعونة قرينة الحال"[٢].

وجملة: (أو نرد فنعمل...) "معطوفة على الجملة التى قبلها داخلة معها فى حكم الاستفهام، كأنه قيل: هل لنا من شفعاء؟ أو هل نردُّ ؟"[٣]

إنهم يتمنون أن يكون لهم شفعاء يكونون بشفاعتهم بمنأى عن العذاب والعقاب، أو يردون إلى الدنيا ، ليصلحوا ما أفسدوه، ويتداركوا ما فاتهم، وقد قدموا بين يدى أمنيتهم اعترافهم بصدق الرسل، وبألوهية من أرسلهم، وكأنهم بهذا الاعتراف طامعون فى الاستجابة، والحقيقة التى لا تغيب عنهم: أن أمنيتهم بعيدة المنال لا سبيل لتحقيقها، ولكنه اضطراب النفوس يوم الفزع الأكبر.

فالتمنى بـ(هل) فى الآية الكريمة " وإن أفاد معنى (ليت) إلا أنك واجد فيه فرقا بينهما، ذلك هو أن (هل) أداة استفهام والاستفهام يكون فى الأمور الممكنة، ثم إن كون المراد بها التمنى لا يعنى أنها انفكت عن الاستفهام وأنها أفرغت منه إفراغاً تاماً، لأن ذلك لا يكون فى الكلمات وإنما يبقى فيها الإيحاء بأن ما دخلت عليه أمر ممكن وهذا يفرغ على التمنى لوناً آخر يجعله فى صورة الممكن، وإن كانوا يعتقدون يقيناً أنه لا سبيل إليه، وإنما هكذا أوهمت عبارتهم، وفى هذا الإيهام إشارة إلى أن حاجتهم إلى شفيع قد غلبت على نفوسهم وعظم تعلقها بها حتى صارت من فرطه تفترض غير الواقع واقعاً؛ لتستروح بهذا الأمل الموهوم.

هذا طعم جديد للتمني-كما قلنا-لا تجده لو أنهم قالوا: ليت لنا شفعاء فيشفعوا لنا، وهذا الذى ذكرناه مقتبس من قولهم الذى هو أحكم من قولنا وأوجز:(والسر فى العدول

---

[١] التحرير والتنوير: جـ٨، صـ١٥٧.

[٢] البرهان فى علوم القرآن: جـ٢، صـ٣٢١، وينظر: فتح القدير: جـ٢، ص٢١٠، والطبرسى، مجمع البيان، جـ٤، صـ٦٥٨، الجامع لأحكام القرآن: جـ٤، صـ٢١٨.

[٣] الكشاف: جـ٢، صـ١٠٩.

عن (ليت) التى هى الأصل فى التمنى إلى (هل) فى نحو هذا الكلام : إبراز المتمنى فى صورة المستفهم عنه الذى لا جزم بانتفائه؛ لإظهار كمال العناية به حتى لا يستطاع الإتيان به إلا فى صورة الممكن الذى يطمع فى وقوعه)".[١]

والتمنى المستفاد من الاستفهام فى الآية الكريمة يصور مدى حسرة المكذبين وخيبة آمالهم، والنظم فى قوله -تعالى-: (قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون) يفيد الضياع؛ لأن من يخسر نفسه فقد خسر ما عداها من كل شيء، وفى هذا إحباط للمكذبين وفجيعة لهم حيث وجدوا أنفسهم صائرين إلى الهلاك مع اليأس القاتل والمصير المشئوم.

تمنى الإنظار والإمهال:

ومن أمانى المجرمين يوم القيامة: طلب الإنظار والإمهال كما فى قوله -تعالى-: (كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)[٢] .

تصور الآيات الكريمة موقف المجرمين من القرآن الكريم، وأنهم كفروا به جحدا مع قيام أبين البراهين على صدق نزوله، وأن ليس للنبى -صلى الله عليه وسلم- فيه سوى أمانة البلاغ والبيان، وتبين الآيات أن هؤلاء المشركين لن يؤمنوا بالقرآن طوعا بل قسرا وإلجاء حين يرون العذاب الأليم، وأنهم حين يرونه يتمنون الإمهال والعودة إلى الدنيا؛ ليؤمنوا بما كفروا به.

ثم يأتى بعد ذلك العجب من حالهم التى كانوا عليها عند نزول القرآن، من استعجالهم العذاب، ولما اقتضت حكمة الله -تعالى- إرجاء العذاب إلى يوم الحساب: التفت النظم الكريم من الحديث عنهم إلى مخاطبة رسوله الكريم -والمقصود بهذا الخطاب هم- فقال -عز وجل-: (أفرأيت إن متعناهم سنين، ثم جاءهم ما كانوا يوعدون، ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون)، وهذا من إخلاص النصح لهم، وإخبارهم بأن طول السلامة لن يمنعهم من حلول العذاب بهم يوم مجيء الأجل المحتوم.

---

[١] دلالات التراكيب: صـ٢٠١، وينظر: مواهب الفتاح، جـ٣، صـ٢٤٠.

[٢] الشعراء: ٢٠٠- ٢٠٧ .

والمتأمل فى الآيات الكريمة يرى أن فيها استفهامات ثلاثة، الاستفهام الأول، قوله تعالى-: (هل نحن منظرون) وهو يفيد التمنى، بناء على أن البلاغيين جوزوا التمنى بـ(هل)، ولو لم يقل البلاغيون هذا لتعين أن تكون (هل) هنا للتمنى؛ لأن التمنى معروف بأنه طلب المستحيل أو المستبعد، وقول المجرمين يوم القيامة: (هل نحن منظرون) ينطبق عليه تعريف التمنى؛ لأن إمهالهم وردهم إلى الدنيا بعد البعث أمر محال، يقول أبو حيان: "(هل نحن منظرون) أى: مؤخرون، وهذا على جهة التمنى منهم والرغبة حيث لا تنفعهم الرغبة"[1]، ويقول الجمل: "(هل نحن منظرون) استفهام تحسر وطمع فى المحال، وهو إمهالهم بعد مجىء العذاب".[2]

ومما هو معروف أن سر العدول فى هذا الأسلوب عن (ليت) الموضوعة أصلا للتمنى إلى (هل) الاستفهامية، أن التمنى بـ(ليت) مجرد تمن لا يفيد أكثر من إظهار التحسر والتفجع، أما إذا أفيد بـ(هل) فإنه يتضمن نوعا من الرغبة والرجاء مع توقع أن يجاب ما أخرجوه مخرج الاستفهام وهو الإنظار، كما تفيد (هل) شدة ترقبهم وطمعهم فى تحقيق الإنظار والإعادة إلى الدنيا؛ ليحصلوا شرف الإيمان، وليعملوا -كما يزعمون- بطاعة الله -تعالى-.

ولنمعن النظر فى نظم جملة الاستفهام التى تفيد التمنى لنجد أن المجرمين أتوا فى أمنيتهم بأداة الاستفهام (هل) دون الهمزة؛ لأن النسبة المطلوبة بالهمزة يترجح فيها لدى السائل إثباتها ووقوعها ويكون عنده هواجس قوية ترجح الإثبات على النفى، أما النسبة المطلوبة بـ(هل) فلا يترجح فيها إثبات ولا نفى، وهم يعلمون أن مطلوبهم محال، وإنما أخرجوه هكذا متأرجحا بين الإثبات والنفى تمسكا بخيوط الوهم، وربما ارتباكا من رؤية العذاب الذى ذهب بفكرهم ووعيهم.

ثم إن (هل) لها مزيد اختصاص بالأفعال ومن هنا لا يعدل عن الفعل إلى الاسم بعدها إلا لنكتة بلاغية، وهى هنا: أن يجعل ما يحدث ويتجدد الذى هو مفاد الجملة الفعلية، أو يجعل ما سيوجد -باعتبار أن (هل) تخلص المضارع -فى الغالب- للاستقبال- فى معرض الكائن الحاصل الذى هو مفاد الجملة الاسمية؛ اهتماما بشأنه واعتناء بأمره، وذلك بناء على قول البلاغيين: إن الجملة الاسمية تفيد الثبوت والدوام،

---

[1] البحر المحيط: جـ٨، صـ١٩٣.

[2] حاشية الجمل: جـ٣، صـ٢٩٤.

والجملة الفعلية تفيد التجدد والحدوث، ومن هنا فقول المجرمين: (هل نحن منظـرون) أدل على طلب حصول الإنظار من قولهم: فهل نُنْظر؟ أو: فهل نحن نُنْظر؟، وذلك لأن الجملة الاسمية تفيد التوكيد، وتدل هنا على معنى أوفى مما تدل عليه الجملـة الفعليـة؛ ولأن إبراز ما يحدث ويتجدد فى معرض الحاصل الثابت أقوى دلالة علـى الاهتمـام بشأنه وكمال العناية بحصوله من إيقائه على أصله...، وكذا من قولهم: أنحن منظرون، وإن كانت صيغته للثبوت؛ لأن (هل) نزاعة إلى الفعل وأدعى له من الهمـزة فتركـه معها أدل على كمال العناية بحصوله، وشدة الاهتمام بوقوعه.

يقول الخطيب: "ولهذا كان قوله -تعالى-: (فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ)[1] أدل على طلـب الاسم من قولنا: فهل تشكرون؟ وقولنا: فهل أنتم تشكرون؟؛ لأن إبراز ما سيتجدد فـى معرض الثابت أدل على كمال العناية بحصوله من إيقائه على أصله، وكذا من قولنـا: أفأنتم شاكرون؟ وإن كانت صيغته للثبوت؛ لأن (هل) أدعى للفعل من الهمزة، فتركـه معها أدل على كمال العناية بحصوله"[2]

وجيء بعد (هل) فى أمنية المجرمين بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت (هل نحن منظرون)؛ اهتماما بالمتمنَّى ورغبة فى حصوله، وإيماء إلى أنهم يتمنون إنظارا طويلاً يتمكنون فيه من تحصيل شرف الإيمان والعمل الصالح، كما يبـدو جليـا بنـاء اسـم المفعول (منظرون) من الفعل المبنى للمجهول {نُنْظر}، وإفادته لشدة تلهفهـم للإنظـار والإمهال؛ هربا مما يرون من العذاب، وأن الإنظار هو بغيتهم على يد من يقع.

ويبدو أن قوله -تعالى-: (حتى يروا العذاب الأليم) مقـدم مـن تـأخير، وأصـل الكلام:حتى يأتيهم العذاب بغتة وهم لا يشعرون، فيرونه فيقولوا: هل نحن منظـرون؟ أى: مؤخرون عن العذاب؛ لنؤمن، وظاهر النظم يدل على أن مفاجأة العـذاب واقعـة عقب رؤيته، ويكون سؤال الإنظار واقعا عقب مفاجأته، وليس كذلك، بل الذى يقع أولاً هو المفاجأة، ثم الرؤية، ثم سؤال الإنظار، فوجب ألا تكون الفاء فى قولـه: (فيـأتيهم بغتة)، وقوله: (فيقولوا هل نحن منظرون) للترتيب الزمانى بل للترتيب الرتبـى، بـأن يكون المعنى: لا يؤمنون بالقرآن حتى يروا العذاب الأليم، فما هو أشد من رؤيته وهـو لحوقه بهم مفاجأة، فما هو أشد منه وهو سؤالهم الإنظار مع القطع بامتناعه.[3]

---

[1] الأنبياء: ٨٠.

[2] الإيضاح:جـ٢، صـ٢٦٨ـ٢٧٠، وينظر: د/ بسيونى فيود، أساليب الاستفهام فى القرآن الكريم، صـ٨٩.

[3] ينظر: حاشية الجمل: جـ٣، صـ٢٩٤.

يقول الزمخشري: "فإن قلت ما معنى التعقيب في قوله: (فيأتيهم بغتة....، فيقولوا) قلت: ليس المعنى ترادف رؤية العذاب ومفاجأته، وسؤال النظرة فيه في الوجود، وإنما المعنى ترتُّبها في الشدة، كأنه قيل: لا يؤمنون بالقرآن حتى تكون رؤيتهم للعذاب، فما هو أشد منها، وهو لحوقه بهم مفاجأة، فما هو أشد منه وهو سؤالهم النظرة، ومثال ذلك أن تقول لمن تعظه: إن أسأت مقتك الصالحون، فمقتك الله، فإنك لا تقصد بهذا الترتيب أن مقت الله يوجد عقب مقت الصالحين، وإنما قصدك إلى ترتيب شدة الأمر على المسيء، وأنه يحصل له بسبب الإساءة مقت الصالحين فما هو أشد من مقتهم وهو مقت الله".[١]

ومن الترتيب الرتبي في الشدة لما يراه المجرمون يوم القيامة يتضح أن أشد أحوال هؤلاء يوم القيامة: هو تمنيهم الإنظار والإمهال، وهو تصوير بديع لما هم فيه من تحسر وندم وخيبة أمل.

أما الاستفهام الثاني فهو قوله -تعالى-: (أفبعذابنا يستعجلون) وهو للإنكار والتبكيت والترهيب؛ لأن عذاب الله -تعالى- أليم شديد، فكيف يطلب ويستعجل ؟ وفيه تعجب من حال المجرمين الذين يستعجلون هلاكهم.

وفي تقديم الجار والمجرور (أفبعذابنا) على (يستعجلون) ليلي همزة الإنكار: إشعار بأنه أعرق في الإنكار من استعجال العذاب؛ لأن استعجال العذاب شيء تنكره الطباع، أما الأشد إنكارا من مجرد استعجال أي عذاب، هو استعجال العذاب المضاف إلى الله -تعالى- ؛ لأنه ليس كعذاب أحد من العالمين، وإنما هو عذاب أليم شديد فظيع، ومن هنا فتقديم (عذابنا) على الاستعجال جاء؛ لأنه محط الإنكار والتعجب، وفي إضافته إلى نون العظمة مزيد تفظيع وتهويل.

يقول الزمخشري: "(أفبعذابنا يستعجلون) تبكيت لهم بإنكار وتهكم، ومعناه: كيف يستعجل العذاب من هو معرض لعذاب يسأل فيه من جنس ما هو فيه اليوم من النظرة والإمهال، طرفة عين فلا يجاب إليها"[٢]، ويقول الجمل: "وإنما قدم الجار والمجرور؛ للإيذان بأن مصب الإنكار والتوبيخ كون المستعجل به عذابه -تعالى- مع ما فيه من رعاية الفواصل"[٣]

---

[١] الكشاف: جـ٣، صـ٣٣٨.

[٢] الكشاف: جـ٣، صـ٣٣٨.

[٣] حاشية الجمل: جـ٣، صـ٢٩٤.

أما الاستفهام الثالث وهو قوله -تعالى-: (أفرأيت إن متعناهم سنين، ثم جاءهم ما كانوا يوعدون، ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون) فهو لتصوير أوضاعهم ومصائرهم فى الذهن؛ ليحكم عليها وهى حاضرة ماثلة فيه، وهو خطاب من الله -تعالى- لرسوله الكريم، ولكل من تتأتى منه الرؤية، والمجرمون هم المقصودون بهذا الاستفهام ، وفيه دعوة لهم أن يتصوروا أنفسهم متروكين ممتعين فى دنياهم مدة طويلة مع ادخار العذاب لهم، فهل هذا ينافع لهم عند مجيء العذاب؟ وهل تمتعهم فى الدنيا يخفف عنهم وطأة العذاب فى الآخرة؟ إن اللذات الحسية لا تختزن ولا تبقى زمانين، ومس قليل من عذاب الله ينسى كل نعيم قبله وإن طال زمنه وعظمت لذته.

وفى إيثار (إن) على (إذا) فى قوله -تعالى-: (أفرأيت إن متعناهم سنين): إشعار بأن تمتيعهم ليس بمحتوم وأن حلول الشقاء بهم فى الدنيا وارد؛ لما فى (إن) من ورود الشك فى شرطها، وتنكير (سنين) يفيد الكثرة، أى: سنين مديدة كثيرة، والعطف ب(ثم) فى قوله -تعالى-: (ثم جاءهم ما كانوا يوعدون) وارد على التراخى الزمنى؛ لأن بين تمتيعهم وحلول ما يوعدون من العذاب فارق زمنى طال أم قصر.

وفى إسناد الفعل (جاء) إلى العذاب مجاز عقلى؛ لأن الله -تعالى- هو الذى يأتى لهم بالعذاب، وفيه تخييل بأن العذاب -من شدة غضب الله عليهم- يسعى بنفسه طالبا القصاص منهم بنفسه ولا ينتظر إتيانهم، وفى بناء الفعل: (يوعدون) لما لم يسم فاعله، إيذان بأن كل شىء فى الوجود كأنه قد وعدهم بهذا المصير المشؤم؛ لشدة مقت الله -تعالى- لهم.

والمراد من (ما) فى قوله -تعالى-: (ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون): النفى، وإيثار الماضى بعدها على المضارع: {ما يغنى} فيه إيماء لتحقق الوقوع حتى لكأنه قد وقع فعلا، وإسناد الإغناء المنفى إلى الموصول وصلته (ما كانوا يمتعون) مجاز عقلى علاقته السببية، أى: ما نفعهم شىء بسبب تمتعهم المتبوع بالكفر والمعصية.

تمنى الرد إلى الدنيا:

ومن أمانى الظالمين يوم القيامة: تمنى الرد إلى الدنيا، كما فى قوله -تعالى-: (وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ)[1]

---

[1] الشورى: ٤٤.

هذه الآية الكريمة فيها تنكير للنبى -صلى الله عليه وسلم- وتسلية؛ حتى لا يستبد به الحزن والأسى من فرط عناد قومه وتماديهم فى الضلال ومقابلة إحسانه إليهم بالإساءة، وفيها أنهم لما رفضوا الهداية أمد الله لهم فى الضلال ؛ جزاء على رفضهم الإيمان واتباعهم الشيطان، ثم سلاه بالإشارة إلى ندمهم على أعمالهم القبيحة حينما يرون العذاب يوم القيامة، فيتمنون الرد إلى الدنيا؛ ليؤمنوا ويعملوا صالحا.

وقد ورد فى فاصلة الآية هذا الاستفهام: (هل إلى مرد من سبيل)، وهو استفهام أريد به التمنى، والغرض منه التحسر والندم على ما فات، والفزع والهلع مما هو آت.

إنهم يتمنون الرد إلى الدنيا؛ لتدارك ما فاتهم من الطاعات الموجبة للنجاة، وفى إيثار (هل) دون (ليت)، طمع فى الاستجابة مع أن هذه الأمنية بعيدة المنال مستحيلة الحصول، ولكنهم ذكروها بطريق الاستفهام؛ إبرازا للمستحيل فى صورة الأمر المرجو المطموع فى حصوله، ولا يخفى ما فى تصدير الاستفهام بالفعل المضارع (يقولون) وما يفيده من معنى التجدد، فهم يكررون الصراخ بهذه الأمنية كثيرا بسبب ما اعتراهم من الفزع والوجل خوفا من رؤية العذاب وهوله.[١]

يقول البقاعى: "يتمنون الرجعة إلى الدنيا؛ لتدارك ما فاتهم من الطاعات الموجبة للنجاة (يقولون) أى: مكررين؛ مما اعتراهم من الدهش وغلب على قلوبهم من الوجل (هل إلى مرد)، أىّ ردٍّ إلى دار العمل وزمانه عظيم مخلص من هذا العذاب".[٢]

ونعود إلى مطلع الآية: (ومن يضلل الله فما له من ولى من بعده) فنرى المضارع (يضلل) وقد أُوثر على الماضى: {أضل}؛ ليعمّ الحكم كل الأوقات، ولدفع توهم أن السنة الإلهية خاصة بالماضى، وإسناد الإضلال إلى الله -تعالى- عن طريق الفاعلية، فيه تفظيع وتهويل لشأن الإضلال، وأنه إضلال لا سبيل فيه إلى الهداية.

و(من) فى قوله -تعالى-: (من ولى) لاستغراق النفى وشموله كل أفراد المنفى وهم الأولياء، فلن يستطيع أحد مهما كانت ولايته هداية هؤلاء الذين كرهوا الهداية، فأمد الله لهم فى الضلال.

---

[١] ينظر: الطبرسى، مجمع البيان: جـ٩، صـ٥٣، والدكتور عبد العظيم المطعنى: التفسير البلاغى للاستفهام فى القرآن الحكيم: جـ٤، صـ٣٧.

[٢] نظم الدرر: جـ١٧، صـ٣٤٢.

والرؤية فى قوله -تعالى-: (وترى الظالمين لما رأوا العذاب) بصرية، وأُوثر المضارع (ترى)؛ لأن الرؤية ستكون يوم القيامة، والخطاب فى الرؤية لغير معين، أى: تناهت حالهم فى الظهور فلا يختص برؤيتها مخاطب، أو الخطاب للنبى -صلى الله عليه وسلم-؛ تسلية له على ما لاقاه من الظالمين، والغرض: الإخبار بحالهم أولاً، والتعجب منه ثانياً؛ للاعتبار بحالهم والاتعاظ بمآلهم.[١]

والمراد بـ(الظالمين): الكفرة الفجرة الذين أنكروا البعث، وإيثار وصفهم بالظالمين -هنا-؛ لكونه أبين فى استحقاقهم العذاب، وجيء بالفعل (رأوا) ماضيا وخولف بينه وبين الأول (ترى)، لأن الأول أُريد به الاستقبال مع تمثيل الصورة وكأنها تقع حال الخطاب، أما الثانى فجيء به ماضيا؛ إشارة إلى تحقق وقوع هذه الرؤية، تأكيداً للوعيد الشديد الذى توعد الله به الظالمين.[٢]

ولنتدبر التنكير فى (مرد) و(سبيل) وما فيه من معنى التنويع، وأن الظالمين يتمنون أى نوع من الرد إلى الدنيا، وبأى سبيل كان؛ فرارا من العذاب، وتلك أُمنية مقطوع باستحالتها، ولكنهم أخرجوها مخرج الاستفهام؛ تلطفا منهم وطمعا فى النجاة، ولا يخفى ما فى التنكير من إفادة التعظيم، فأى ردٍّ وأى سبيلٍ يخلصهم مُن العذاب ويحقق أُمنيتهم لا شك أنه ردٌّ عظيم وسبيل عظيم.

تمنى الخروج من النار:

ومن أمانى الكافرين يوم القيامة: تمنى الخروج من النار، كما فى قوله -تعالى-: (قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ)[٣] .

فالكافرون يلتمسون وهم يعذبون فى نار جهنم طريقا إلى الخروج، ويصرخون ضارعين إلى الله -تعالى- أن يستجيب لندمهم، ويعفو عنهم بعد أن أقروا بذنبهم، وغاية أمانيهم أن يجدوا سبيلا ينتهى بهم إلى الخروج من النار، ولعل رغبتهم الجامحة فى إيجاد مخرج من العذاب هى التى جعلتهم يقدمون الجار والمجرور (إلى خروج)على (من سبيل)؛ إسراعا إلى المقصود وانتهاء إلى الغرض.[٤]

---

[١] ينظر: تفسير البيضاوى: جـ٧، ص٤٢٦، التفسير البلاغى للاستفهام فى القرآن الحكيم جـ٤، صـ٣٦.

[٢] ينظر: التحرير والتنوير: جـ٢٥، صـ١٢ ، التفسير البلاغى للاستفهام جـ٤، صـ٣٦.

[٣] غافر: ١١.

[٤] ينظر: د/ الخضرى: من أسرار حروف الجر فى الذكر الحكيم، صـ١٠١.

إن الكافرين يتمنون الخروج من النار بعد أن كتب الله عليهم الخلود فيها، وهم يعلمون أن خروجهم من العذاب لا سبيل إليه، ولكنهم أبرزوا المحال في صورة الممكن، وكأنهم يمنون أنفسهم بإمكانه، فآثروا حرف الاستفهام (هل) لإظهار المتمنَّى المستحيل في صورة الأمر المرجو الحصول المطموع في نيله ، وقد قدموا له بهذا الاعتذار، وهو الاعتراف بربوبية الله -تعالى- والإقرار بذنوبهم، وإظهار غاية الضعف والذلة؛ طمعا في عفو الله ومغفرته، بعد أن قطعوا كل الأسباب إليها.

ونلمح في مقولة الكافرين تقربا إلى الله -تعالى- وتلطفا، يبدو ذلك واضحا في ندائه -تعالى- بصفة الربوبية المشعرة بالتربية والإحسان، وهذا استعطاف منهم وطمع في إحسانه -تعالى-، وقد حذفوا أداة النداء (يا) تودداً وتقربا إلى الله -تعالى-، ثم اعترفوا بقدرته -تعالى- على الإحياء والإعادة (ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) أي: "قدرتك عظيمة، فإنك أحييتنا بعد ما كنا أمواتا، ثمّ أمتنا ثم أحييتنا، فأنت قادر على ما تشاء، وقد اعترفنا بذنوبنا".[1]

يقول الزمخشري: "فإن قلت: كيف تسبب هذا -أي: الاعتراف بقدرة الله على الإماتة والإحياء- لقوله -تعالى-: (فاعترفنا بذنوبنا)؟ قلت: قد أنكروا البعث فكفروا، وتبع ذلك من الذنوب ما لا يحصى، لأن من لا يخشى العاقبة تخرّق في المعاصي، فلما رأوا الإماتة والإحياء قد تكررا عليهم ،علموا بأن الله قادر على الإعادة قدرته على الإنشاء، فاعترفوا بذنوبهم التي اقترفوها من إنكار البعث وما تبعه من معاصيهم".[2]

لقد طمع الكافرون في أن يكون اعترافهم بذنوبهم وسيلة إلى منحهم خروجا من العذاب، خروجا ما؛ ليستريحوا من النار ولو بعض الزمن، والمقصود من الاعتراف هو اعترافهم بالحياة الثانية، لأنهم كانوا ينكرونها، وأما الموتتان والحياة الأولى، فإنما ذكرن إدماجا؛ للاستدلال في صلب الاعتراف تزلفا منهم، أي: أيقنا أن الحياة الثانية حق، وذلك تعريض بأن إقرارهم صدق لا مواربة فيه ولا تصنع؛ لأنه حاصل عن دليل، ولذلك تسبب عن هذا الكلام قولهم: (فاعترفنا بذنوبنا) وهو إقرار بالذنوب، وجعلوا هذا الاعتراف ضربا من التوبة توهما منهم أن التوبة تنفع يومئذ، فلذلك فرعوا

---

[1] تفسير ابن كثير: جـ٤، صـ٧٣.

[2] الكشاف: جـ٤، صـ١٥٥.

عليه (فهل إلى خروج من سبيل)[١]، "وهذا تلطف منهم فى الاستدعاء، أى هل بعد الاعتراف سبيل إلى الخروج".[٢]

ولنتأمل التنكير فى (خروج) و (سبيل) وإفادتهما للتنويع، وما يشعره التنكير من التلطف فى السؤال، وأنهم يسألون نوعا من الخروج فى أى سبيل كان، ولا يخفى علينا ما وراء التنكير من التعظيم، فأى خروج من العذاب فى أى سبيل حتما سيكون خروجا عظيما فى سبيل عظيمة، لأن فيه إنقاذا من هول النار وفظاعة العذاب.

يقول الزمخشرى: "(فهل إلى خروج) أى: إلى نوع من الخروج سريع أو بطىء (من سبيل) قط، أم اليأس واقع دون ذلك فلا خروج ولا سبيل إليه؟ وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط، وإنما يقولون ذلك تعللاً وتحيراً".[٣]

ويقول ابن عاشور: "وتنكير (خروج) للنوعية تلطفا فى السؤال، أى: إلى شىء من الخروج قليل أو كثير؛ لأن كل خروج ينتفعون به راحة من العذاب...، وتنكير (سبيل) كتنكير (خروج) أى: من وسيلة كيف كانت، بحق، أو بعفو، أو بتخفيف، أو بغير ذلك"[٤]، وتلك أمانى من غلب عليه الندم يذكرها بطريق الاستفهام؛ إبرازا للمتمنَّى المستحيل فى صورة الأمر المرجو الحصول المطموع فى نيله.

ثانيا: التمنى بـ(أين):

(أين) اسم استفهام يسأل بها عن المكان، وقد وردت فى كتاب الله -تعالى- مراداً بها التمنى كما فى قوله -تعالى-: (بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (٦) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ)[٥].

فالآيات الكريمة فيها استفهامان، الأول: قوله -تعالى-: (يسأل أيان يوم القيامة)، وهو سؤال استبعاد ليوم القيامة من الإنسان الكافر، والثانى قوله -تعالى-: (يقول

---

[١] ينظر التحرير والتنوير: جـ٢٤، صـ٩٧، ٩٨.

[٢] مجمع البيان: جـ٨، صـ٨٠٤.

[٣] الكشاف: جـ٤، صـ١٥٥، وينظر: حاشية الشيخ زادة: جـ٤، صـ٢٢٥، ونداء غير العاقل فى القرآن: صـ٤٩.

[٤] التحرير والتنوير: جـ٢٤، صـ٩٩.

[٥] القيامة: ٥-١٠.

الإنسان يومئذ أين المفر) وهو استفهام يدل على الحيرة والتخبط والتحسر والندم، وتمنى الفرار من العذاب المرتقب، وأنى للكافر ذلك؟ فالاستفهام بـ(أين) هنا أريد به التمنى؛ لأن التمنى معروف بطلب المحال أو البعيد، وقول الكافر يوم القيامة: (أين المفر) ينطبق عليه تعريف التمنى، لأن وجود مهرب ومفر للكافر يوم القيامة أمر بعيد المنال محال الحصول.

والتمنى بـ(أين) فى قول الكافر وإن أفاد معنى (ليت) إلا أنك واجد فيه فرقا بينهما، ذلك هو أن (أين) أداة استفهام، والاستفهام يكون فى الأمور الممكنة، وكون (أين) أريد بها التمنى لا يعنى أنها انفكت عن الاستفهام وانسلخت منه، وإنما يبقى فيها الإيماء بأن ما دخلت عليه أمر ممكن، وهذا يفرغ على التمنى ما يجعله فى صورة الممكن، وإن كان الكافر يعتقد يقينا أنه لا سبيل إلى الفرار، وإنما هكذا أوهمت عبارته، وفى هذا الإيهام إشارة إلى أن حاجته إلى الفرار قد غلبت على نفسه، وعظم تعلقها به حتى صارت من فرطه تفترض غير الواقع واقعا؛ لتستروح بهذا الأمل الموهوم، وهذا الطعم لا نجده لو أن الكافر قال: ليت لى مفراً.[1]

وإذا ما عقدنا مقارنة بين استفهام الكافر بـ(أيان) فى مطلع الآيات فى دنياه، واستفهامه بـ(أين) فى نهاية الآيات فى أخراه، لوجدنا أن الاستفهام فى قوله -تعالى-: (يسأل أيان يوم القيامة) ليس استفهاما حقيقيا عن زمان وقوع يوم القيامة، وإنما هو استبعاد لوقوع ذلك اليوم، وقد نقل الخطيب عن على بن عيسى الربعى أن (أيان) "تستعمل فى مواضع التفخيم"[2]، والتفخيم هنا منصب على معنى الاستبعاد المستفاد من الاستفهام مما يدل على شدة استبعادهم للبعث، وقد تناغم هذا المعنى مع الإيقاع الصوتى المتمثل فى حرف المدّ وكأنما يرمز طول المساحة الصوتية فى النطق بالكلمة إلى طول الزمن الناشىء عن الاستبعاد.

أما تمنى المهرب والنجاة فقد أدى بأداة الاستفهام (أين) -وهى أقصر صوتاً من (أيان)- تجاوباً مع مقام الهلع والفزع، والضائق المكروب المتقطع الأنفاس يؤثر من الكلمات أوجزها، ومن الأصوات أقصرها، وهذا هو الفرق بين هذا الإنسان المستبعد للبعث وهو فى رخاء العيش ورغد الدنيا، وبينه حين تطبق على أنفاسه الكروب،

---

[1] ينظر: دلالات التراكيب: صـ٢٠١.

[2] الإيضاح: جـ٢، صـ٢٨٩.

وتضيق عليه السبل حيث لا مفر ولا مهرب من قضاء الله وعذابه، (كلا لا وزر، إلى ربك يومئذ المستقر).[1]

☼ ☼ ☼

وبعد: فقد جاء التمنى بطريق الاستفهام متنوعا من حيث الأداة التى استعملت فى التمنى، فرأينا من أدوات الاستفهام (هل، وأين)، وكما سبق أن ذكرنا فإن أعظم مواقع التمنى ما أُفيد بأدوات ليست موضوعه له أصالة فيصاحبها من ظلال معانيها الوضعية ما يكشف عن أغراض المتكلم وإيماءاته، والغرض من التمنى بطريق الاستفهام هو: إبراز المحال فى صورة الممكن المرجو الحصول، طمعا فى حصوله وتطلعا إلى نيله.

وكانت (هل) أكثر أدوات الاستفهام استعمالا فى التمنى، وقد تنوع التمنى بها على ألسنة الكافرين يوم القيامة، وكانت أمانيهم مترتبة ترتيبا تصاعديا يتناسب مع تصاعد الأهوال واشتداد الكربات، فهم عندما يُبغتون بقيام الساعة يتمنون الشفعاء، وعندما تشتد الكربات يتمنون الإنظار والإمهال، وعندما تحيط بهم الشدائد والأهوال يتمنون الرد إلى الدنيا، وعندما يُلقون فى جهنم يتمنون الخروج منها والمفر، هربا من عذابها وشدائدها، ثم جاءت (أين) لتعبر عن أُمنية الكافرين يوم القيامة حيث يتمنون مفراً من النار ومهرباً من الشدائد والأهوال.

---

[1] القيامة: ١١، ١٢.

المبحث الثالث
التمنى بطريق الشرط

اتضح فيما سبق أن من أعظم مواقع التمنى ما أُفيد بأدوات ليست موضوعة للدلالة عليه أصالة فيصاحبها من ظلال معانيها ما يكشف عن أغراض المتكلم وإيماءاته، وذكرت من ذلك أدوات الاستفهام، وأنها تأتى مفيدة للتمنى؛ إبرازا للمحال أو البعيد فى صورة الممكن المطموع فى حصوله، ومن ذلك أيضاً (لو) الشرطية فإنها تفيد عكس ما يفيده الاستفهام المفيد للتمنى حيث تجىء مفيدة للتمنى؛ إبرازا للمتمنَّى المحال أو البعيد فى صورة الممتنع؛ تجسيدا لليأس من حصوله، فكأنها تزيد المحال إحالة والبعيد بعدا، وقد جاء التمنى بطريق الشرط فى سياق سورة الشعراء والزمر والبقرة نذكرهما على النحو التالى:

تمنى الرجوع إلى الدنيا فى سياق سورة الشعراء :

جاء تمنى الرجوع إلى الدنيا بأداة الشرط (لو) على لسان الكافرين بعد إلقائهم فى النار، فجرى بين الضالين والمضلين حوار انتهى بتمنيهم العودة إلى الدنيا؛ ليؤمنوا وليعملوا عملا صالحا يبعد عنهم هول العذاب: قال -تعالى-: (قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ، تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ، فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ، وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ، فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)[1] .

فقد ضُمّنت (لو) معنى التمنى بقرينة نصب المضارع بأن مضمرة بعدها، إذ لا ينصب الفعل بأن مضمرة بعد الفاء إلا بعد الاستفهام والتمنى والعرض والأمر والنهى والنفى[2]، فكان نصب الفعل قرينة على أن (لو) محمولة على التمنى؛ لكثرة إفادتها له.

والسر -والله أعلم- وراء التمنى بـ(لو) هنا الإشعار بعزة متمناهم فأبرزوه فى صورة الممتنع، لأن الأصل فى (لو) الدلالة على الامتناع[3]، وفى ذلك تجسيد لمشاعر

---

[1] الشعراء: ٩٦-١٠٢.

[2] ينظر: المبرد، المقتضب: جـ٢، صـ١٦، ت/ محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، ابن هشام، شرح شذور الذهب: صـ٣٠١، ٣٠٢، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت.

[3] ينظر: مغنى اللبيب، جـ١، صـ٣٣٧.

اليأس التى أحاطت بهم، وكأنهم يقولون فى نهاية حوارهم: لا جدوى من هذا التخاصم، فلا ردّ لما مضى ولا خروج من هذا العذاب الفظيع.

يقول الدكتور/ محمد أبو موسى: "والفرق بين التمنى بـ(لو) والتمنى بـ(ليت) فيما نظن: أن (لو) هنا تزيد المتمنَّى بعدا، وكأنها تبرز شعور اللهفة اليائس...، ويظهر هذا فى المثال المشهور: { لو تأتينى فتحدثنى} بنصب {تحدثنى}، فإن (لو) بمعنى (ليت) والفرق بين هذا وقولنا: { ليتك تأتينى فتحدثنى} هو فيما نتوهم: استبعاد الإتيان أكثر مع (لو) التى هى حرف امتناع لوجود".[١]

وبالإمعان فى سياق الآيات يقوى هذا الوجه، فقول الكافرين -كما حكاه القرآن الكريم عنهم-: (فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين) قالوه لما كبكبوا فى النار هم والغاوون، وأخذوا يتخاصمون قائلين: (تالله إن كنا لفى ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين) لقد أقسموا على أنهم كانوا فى ضلال، "وجىء فى القسم بالتاء دون الواو والباء؛ لأن التاء تختص بالقسم فى شىء متعجب منه...، فهم يعجبون من ضلالهم، إذ ناطوا آمالهم ونصرهم بحجارة لا تغنى عنهم شيئا، ولذلك أفادوا تمكن الضلال منهم باجتلاب حرف الظرفية المستعار لمعنى الملابسة؛ لأن المظروف شديد الملابسة لظرفه، وأكدوا ذلك بوصفهم الضلال بالمبين، أى: الواضح البين، وفى هذا تسفيه منهم لأنفسهم، إذ قبلت هذا الضلال الذى ما كان له أن يروج على ذى مسكة من عقل، وصيغ (نسويكم) فى صيغة المضارع؛ لاستحضار الصورة العجيبة حين يتوجهون إلى الأصنام بالدعاء والنعوت الإلهية".[٢]

وأما قولهم: (وما أضلنا إلا المجرمون) فهو خبر مستعمل فى معنى التحسر والتوجع، والقصر فيه -كما قال الشهاب الخفاجى-: إضافى بالنسبة إلى الأصنام[٣]، وأنها لا دخل لها فى الإضلال، ولا قدرة لها عليه، وإنما أضلهم المجرمون حيث أطمعوهم فى شفاعة الأصنام لهم عند الله -تعالى-.

وأما قولهم: (فما لنا من شافعين، ولا صديق حميم) فالمراد به: "نفى جنس الشفيع وجنس الصديق؛ لوقوع الاسمين فى سياق النفى المؤكد بـ(من)"[٤]، وهو خبر أُريد به

---

[١] دلالات التراكيب: صـ٢٠٢.

[٢] التحرير والتنوير: جـ١٩، صـ١٥٣.

[٣] ينظر: حاشية الشهاب: جـ٧، صـ٢١.

[٤] التحرير والتنوير: جـ١٩، صـ١٥٥.

التحسر والندم والتوجع، "أرادوا أنهم وقعوا فى مهلكة فعلموا أن الشفعاء والأصدقاء لا ينفعونهم ولا يدفعون عنهم فقصدوا بنفيهم نفى ما يتعلق بهم من النفع؛ لأن ما لا ينفع حكمه حكم المعدوم"[١]

وقد توقف المفسرون عند جمع الشافع وإفراد الصديق، فقال الزمخشرى: "فإن قلت: لم جمع الشافع ووحد الصديق؟ قلت: لكثرة الشفعاء فى العادة وقلة الصديق، ألا ترى أن الرجل إذا امتحن بإرهاق ظالم نهضت جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته رحمة له وحسبة، وإن لم يسبق له بأكثرهم معرفة، وأما الصديق وهو الصادق فى وداده الذى يهمه ما أهمك فأعز من بيض الأنوق، وعند بعض الحكماء أنه سئل عن الصديق فقال: اسم لا معنى له"[٢]

وها هى ذى أُمنيتهم التى ختموا بها تخاصمهم وتحسرهم: (فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين) وفيها مزيد من التحسر والندم، يقول الزمخشرى: "و(لو) فى مثل هذا الموضع فى معنى التمنى كأنه قيل: قليت لنا كرة، وذلك لما بين معنى (لو) و(ليت) من التلاقى فى التقدير"[٣]، ويقول الشهاب: "(لو) تدل على الامتناع، والتمنى يكون لما يمتنع فأُريد بها ذلك"[٤]، ويقول أبو حيان: "(لو) هنا أُشربت معنى التمنى"[٥]، ويقول ابن عاشور: "(لو) هذه للتمنى، وأصلها (لو) الشرطية، لكنها تنوسى منها معنى الشرط، وأصلها: لو أُرجعنا إلى الدنيا لآمنا، لكنه إذ لم يقصد تعليق الامتناع على الامتناع تمحضت (لو) للتمنى؛ لما بين الشىء الممتنع وبين كونه متمنى من المناسبة"[٦].

فمن كلام العلماء يتضح أن (لو) هنا تفيد التمنى، وأنها وردت على ألسنة الكافرين، تمنيا للرجوع إلى الدنيا بدلا من (ليت)، وذلك لأنها تزيد المتمنَّى بعدا، وصدق القرطبى حين قال: "تمنوا حين لا ينفعهم التمنى"[٧].

---

[١] الكشاف: جـ٣، صـ٣٢٢.

[٢] الكشاف: جـ٣، صـ٣٦٩، وينظر: تفسير البيضاوى: جـ٧، صـ٢١، والبحر المحيط: جـ٨، صـ١٧١.

[٣] الكشاف: جـ٣، صـ٣٦٩.

[٤] حاشية الشهاب: جـ٧، صـ٢١.

[٥] البحر المحيط: جـ٨، صـ١٧١.

[٦] التحرير والتنوير: جـ١٩، صـ١٥٦.

[٧] الجامع لأحكام القرآن: جـ٧، صـ١١٨.

تمنى الرجوع إلى الدنيا فى سياق سورة الزمر:

ومن التمنى بـ(لو) قوله -تعالى-: (أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)[١] .

فـ(لو) فى هذه الآية الكريمة تفيد التمنى، والفعل (فأكون) منصوب فى جواب التمنى[٢]، والكرُّ: الرجوع، والكرة: الرجعة إلى محل كان فيه الراجع[٣]، وهى اسم مرة من الكرّ، ولذلك تطلق فى القرآن على الرجوع إلى الدنيا، لأنه رجوع إلى مكان سابق، وحذف متعلق الكرة هنا؛ لظهوره ووضوحه، أى إلى الدنيا.

فالنفس المسيئة فى هذه الآية حين ترى العذاب يوم القيامة تتمنى الرجوع إلى الدنيا؛ لتكون من المحسنين، وهذا اعتراف منها بأنها كانت من المسيئين، إذ لو كانت من المحسنين لسعدت بعملها وما تمنت الرجوع إلى الدنيا.

وقول النفس عند رؤيتها للعذاب وأهواله محكى فى ثلاث آيات، قال -تعالى-: (أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)[٤]، وقد "حكى كلام النفس فى ذلك الموقف على ترتيبه الطبيعى فى جولانه فى الخاطر بالابتداء بالتحسر على ما أوقعت فيه نفسها، ثم بالاعتذار والتنصل طمعا فى أن ينجيها ذلك، ثم بتمنى أن تعود إلى الدنيا لتعمل الإحسان، كقوله -تعالى-: (رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ)[٥] فهذا الترتيب فى النظم هو أحكم ترتيب، ولو رتب الكلام على خلافه لفاتت الإشارة إلى تولد هذه المعانى فى الخاطر حينما يأتيهم العذاب"[٦]

وهذه الأُمنية التى ختمت بها النفس المسيئة كلامها فيها تجسيد لمشاعر الأسى والندم، وكأنها تقول فى نهاية كلامها لا جدوى من التعلل بأن التقصير لم يكن منى، فلا رجوع إلى الدنيا ولا مخرج من العذاب.

---

(١) الزمر: ٥٨.

(٢) ينظر: روح المعانى: جـ١٣، صـ٢٨.

(٣) لسان العرب: مادة (كرر) ، جـ٥، صـ١٢٥.

(٤) الزمر: ٥٦-٥٨.

(٥) المؤمنون: ٩٩.

(٦) التحرير والتنوير: جـ٢٤، صـ٤٧.

والسر فى التمنى بـ(لو) هنا: الإشعار بعزة مُتمنًّى تلك النفس، حيث أبرزت أُمنيتها فى صورة الممتنع؛ لأن (لو) تدل على الامتناع، وفى ذلك تجسيد لمشاعر القنوط التى أحاطت بتلك النفس المتمنية، لقد تمنت الرجوع ولات حين رجوع، إنه ممتنع بل محال، ولا طمع لها فى حصوله أو نيله، ولكنها الحيرة وهول العذاب الذى ذهب بالألباب.

تمنى الرجوع إلى الدنيا فى سياق سورة البقرة :

ومن التمنى بـ(لو) قوله -تعالى-: (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ، وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ)[١] .

هاتان الآيتان تصوران ما يحدث يوم القيامة بين التابعين والمتبوعين حين يرون العذاب حيث يتبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا، وتتقطع الوصل التى كانت بينهم فى الدنيا من الأنساب والحبّ والدين والتبعية، وتلك حالة فظيعة تبين تخاذل المتبوعين وتنصلهم من مواعيد نفعهم التى وعدوا بها التابعين.

والأسباب: جمع سبب، وهو الحبل مطلقا، أو الحبل الذى يتوصل به إلى الماء، أو الحبل الذى أحد طرفيه متعلق بالسقف، أو الحبل الذى يُرتقى به النخل[٢]، يقول ابن عاشور: "وقوله: (وتقطعت بهم الأسباب) تمثيلية، شبهت هيأتهم عند خيبة أملهم حين لم يجدوا النعيم الذى تعبوا لأجله مدة حياتهم، وقد جاء إيانه فى ظنهم فوجدوا عوضه العذاب، بحال المرتقى إلى النخلة ليجتنى الثمر الذى كدّ لأجله طول السنة فتقطع به السبب عند ارتقائه فسقط هالكا، فكذلك هؤلاء قد علم كلهم حينئذ أن لا نجاة لهم فحالهم كحال الساقط من علوٍّ لا ترجى له سلامة، وهى تمثيلية بديعة"[٣]

وفى هول هذه الأحداث الفظيعة من رؤية العذاب، وتنصل المتبوعين من التابعين، وتقطع ما بينهم من وصل كانت فى الدنيا يتمنى التابعون ما لا يمكن بحال وهو الرجوع إلى الدنيا، قال -تعالى-: (وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما

---

[١] البقرة: ١٦٦، ١٦٧.

[٢] لسان العرب: مادة (سبب) جـ١، صـ٤٥٨.

[٣] التحرير والتنوير: جـ٢، صـ٩٧.

تبرءوا منا) يقول الزمخشرى: "(لو) فى معنى التمنى؛ ولذلك أجيبت بالفاء الذى يجاب به التمنى، كأنه قيل: ليت لنا كرة فنتبرأ منهم"[١]، ويقول ابن عاشور: "و(لو) فى قوله -تعالى-: (لو أن لنا كرة) مستعملة فى التمنى، وهو استعمال كثير لحرف (لو)...،لأن الشيء العسير المنال يكثر تمنيه...، وتقدير الكلام: لو ثبتت لنا كرة لتبرأنا منهم ، وانتصب ما كان جواباً على أنه جواب التمنى، وشاع هذا الاستعمال حتى صار من معانى (لو) وهو استعمال شائع".[٢]

والآية تصور حسرة التابعين وندمهم حيث " تمنوا الرجوع إلى الدنيا حتى يطيعوا الله -تعالى- فيتبرءوا من متبوعيهم فى الآخرة إذا حشروا جميعاً مثل تبرؤ المتبوعين منهم؛ مجازاة لهم بمثل صنيعهم"[٣].

يقول ابن عاشور: "تمنوا أن يعودوا إلى الدنيا بعدما علموا الحقيقة وانكشف لهم سوء صنيعهم، فيدعوهم الرؤساء إلى دينهم فلا يجيبوهم؛ ليشفوا غيظهم من رؤسائهم الذين خذلوهم ولتحصل للرؤساء خيبة وانكسار كما خيبوهم فى الآخرة، فإن قلت: هم إذا رجعوا رجعوا جميعاً عالمين بالحق فلا يدعوهم الرؤساء إلى عبادة الأوثان حتى يمتنعوا عن إجابتهم، قلت: باب التمنى واسع فالأتباع تمنوا أن يعودوا إلى الدنيا عالمين بالحق ويعود المتبوعون فى ضلالهم السابق"[٤].

وسياق الآية ينبئ بازدياد المتمنّى بـ (لو) بعداً واستحالة، فقد وقع هذا التمنى بعد رؤيتهم العذاب وتيقنهم من حلوله بهم وهذا مما يزيد من شعورهم باليأس واستحالة الرجوع إلى الدنيا، ويرجع ازدياد المتمنى بـ(لو) بعداً أو استحالة إلى طبيعة دلالتها إذ هى حرف امتناع لامتناع، وقد جاءت فى تمنى التابعين بدلاً من (ليت)؛ لتعكس إحساسهم بواقعهم الأليم فتصبغ أمنيتهم بمشاعر اليأس من تحقيقها .

وبعد: فقد جاء التمنى بطريق الشرط؛ إبرازاً للمتمنى فى صورة الممتنع تجسيداً لليأس من حصوله إذ إن الشرط يزيد المتمنى المحال إحالة، والمتمنى البعيد بعداً؛ إبرازاً لشعور اللهفة اليائس وقد اقتصر التمنى بطريق الشرط على تمنى الرجوع إلى الدنيا.

---

(١) الكشاف: جـ١، ص٢١٢.

(٢) التحرير والتنوير: جـ٣، صـ٩٨.

(٣) روح المعاني: جـ٢ ، صـ٥٤.

(٤) التحرير والتنوير:جـ٢ ، صـ٩٨.

وقد تنوع التمنى بطريق الشرط بحسب المقام إذ جاء على لسان الكافرين وقد فقدوا الأمل فى نفع الشفعاء والصديق الحميم: (فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين)، فلما لم يجابوا انكبت كل نفس على أحزانها تعاود كرة التمنى منفردة: (لو أن لى كرة فأكون من المحسنين)، فلما لم تجب إلى طلبها برزت صرخة التابعين بنفس الأمنية وهى الرجوع إلى الدنيا: (وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار).

وهكذا تمنوا الرجوع إلى الدنيا والخروج من النار فلم يجابوا إلى أمانيهم ونفى عنهم الخروج من النار نفياً دائماً مستمراً مما يزيد من حسرتهم وندمهم ويأسهم.

لولا ولوما وهلا وألا

قال السكاكى: "وكأن الحروف المسماه بحروف التنديم والتحضيض وهى: هلا وألا ولولا ولوما مأخوذة منهما (أى: من هل ولو) مركبة مع لا وما المزيدتين؛ مطلوبا بالتزام التركيب التنبيه على إلزام هل ولو معنى التمنى، فإذا قيل: هلا أكرمت زيدا، وألا بقلب الهاء همزة، أو لولا أو لوما، فكأن المعنى: ليتك أكرمت زيدا، متولدا منه معنى التنديم، وإذا قيل: هلا تكرم زيدا، أو لولا، فكأن المعنى: ليتك تكرمه، متولدا منه معنى السؤال"[١]

خالف السكاكى النحاة فى جعل التنديم والتحضيض لهذه الأدوات معنى متولدا عن التمنى وليس حقيقة فيها، فإذا استعملت مع الماضى كانت للتنديم ، لأن التمنى طلب ولا يطلب الفائت، فيكون طلبه تنديما للمخاطب على ترك تحصيله، وتوبيخا عليه، مثال ذلك قوله ــ تعالى ــ فيما حكاه من قصة الرجلين الذين ضربهما مثلا:(ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله)[٢] قالها المؤمن ردا على صاحبه الكافر حين قال بعد أن دخل جنته: (ما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة)[٣]، فما قاله قد فات ولا سبيل إلى رده، وإنما هو تنديم له على ترك ما كان ينبغى أن يقوله، وتوبيخ على فواته، وجاء تقديم الظرف (إذ دخلت جنتك) زيادة فى التقريع إذ كان يجب المبادرة والإسراع بهذه العبارة الدالة على التسليم لله وتفويض الأمر إليه والاعتراف بالعجز

---

(١) مفتاح العلوم: ١٧٢.

(٢) الكهف: ٣٩.

(٣) الكهف: ٣٥،٣٦.

أمام قوته وقدرته، يقول الألوسى: "(ولولا إذ دخلت جنتك قلت) حض على القول وتوبيخ على تركه، وتقديم الظرف على المحضض عليه للإيذان بتحتم القول فى أن الدخول من غير ريث للقصر"[١]

وحين تقع هذه الحروف المركبة مع المستقبل يتولد عن التمنى بها التحضيض، وهو الحث على الفعل كما فى خطاب صالح ــ عليه السلام ــ لقومه: (قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرن الله لعلكم ترحمون)[٢]، ففى دلالة (لولا) على التمنى إيماء إلى شعور النبى الكريم ببعد تحقيق ما يتمناه؛ لكثرة ما لاقاه من عنت قومه، وقد تولد عن هذا التمنى حثهم على الاستغفار، وتوبيخهم على تركه.

وقد يصاحب التحضيض التهكم والاستهزاء كما نراه فيما حكاه الله ــ تعالى ــ عن اليهود والمنافقين: (ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير)[٣]، يقول الزمخشرى: "كانوا يقولون: ما له إن كان نبيا لا يدعو علينا"[٤] ففيطلبهم من النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ الدعاء عليهم بالعذاب تهكم به ، واستخدام أداة تدل على التمنى يوحى بما قر فى أنفسهم من استبعادهم وقوع العذاب بهم.

ومثله قوله ــ تعالى ــ على لسان مشركى مكة: (وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون، لوما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين)[٥]، فقد نادوه بما لا يعتقدونه؛ لأنهم لا يؤمنون بنزول شىء عليه ويكذبونه فيما يبلغ عن ربه، فكان هذا الخطاب منهم سخرية واستهزاء، ثم جاء حضهم له على الإتيان بالملائكة وهم يعتقدون أنه لا يقدر على ذلك تهكما آخر بدليل قولهم: (إن كنت من الصادقين).

على أن القرآ ن كثيرا ما وردت به (لولا) داخلة على الفعل الماضى مرادا بها التحضيض على خلاف ما هو مقرر من أن طلب الفائت يتولد عنه التنديم، لكنك حين

---

(١) روح المعانى، جـ١٥، صـ٢٧٩.

(٢) النمل: ٤٦.

(٣) المجادلة: ٨.

(٤) الكشاف جـ٤، صـ٧٤.

(٥) الحجر ٦،٧.

تتأمل هذه المواطن فى القرآن لا يخطئك أن الماضى وضع موضع المضارع؛ زيادة فى الحث وكمال الرغبة فى وقوع الفعل، فيظهره المتكلم فى صورة ما قد وقع، وغالبا ما تجد هذا فى مواقف الفزع والشدة حيث الذهول والأخذ بهول المفاجأة، كما نراه فى قوله ــ تعالى ــ: (وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين)[1]، فالظاهر أن يقول: لولا تؤخرنى، لكنهن ولكنه أخرجه مخرج ما قد وقع تنبيها على شدة الرغبة فى وقوعه، قال الجمل: "فإنه ماض بمعنى المضارع، إذ لا معنى لطلب التأخير فى الزمن الماضى"[2].

---

(١) المنافقون: ١٠.

(٢) الفتوحات الإلهية: جـ٤، صـ٣٤٩.

المبحث الرابع
التمنى بطريق الأمر

الأمر:هو طلب الفعل على جهة الاستعلاء، واستعمال صيغته فى التمنى يجسد شدة ما يعانيه المتمنِّى ورغبته فى نيل متمناه، وكثيرا ما يرد الأمر مرادا به التمنى على ألسنة أهل النار يوم القيامة يتمنون به الأمانى، وأمانى أهل النار بطريق الأمر كثيرة ومتنوعة نذكر منها:

أولاً: تمنى الرجوع إلى الدنيا :

قال -تعالى-: (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ، لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)[1] .

هاتان الآيتان الكريمتان تصوران أحوال الكافرين ساعة مجيء الموت لأحدهم فيُكشف عنه حجاب عينيه فيرى ما كان مغيبا عنه من ملائكة العذاب تقبض روحه بشدة، ومن عذاب ينتظر خروج أنفاسه، ساعتها يجأر ويصيح مناديا ربه الكريم المحسن، ولعلك ترى كيف نادى الملك -جل جلاله- بصفة الربوبية؛ طمعا فى كرمه وإحسانه، وكيف لم ينطق بأداة النداء؟ وكيف ينطق بها وهو فى حالة تتقطع فيها أنفاسه ضيقا وكربا وهولا وفزعا؟ إنه يعالج سكرات الموت وخروج الروح.

ثم فى حذف أداة النداء أمر آخر وهو إذابة الفواصل بينه وبين ربه -تعالى-، تقربا إليه وتودداً، طمعا فى إحسانه، فهذا الكافر الذى طالما ابتعد عن ربه فى دنياه ها هو ذا فى مطلع خطواته نحو منازل الآخرة، وقد كشفت له حقيقة ما كان ينكره يسعى مسرعا نحو ربه مناديا متقربا مسقطا من العبارة ما من شأنه أن يكون فاصلا بينه وبين من يرجو إحسانه ولطفه.

ولنتأمل هذا الدعاء الذى توجه به الكافر نحو ربه عقب ندائه: (ارجعون) فهذا أمر ليس على حقيقته من طلب الفعل على جهة الاستعلاء، وإنما أُريد به الدعاء والتمنى، واستعمال صيغة الأمر فى التمنى يجسد شدة ما يعانيه المتمنى من هول ما يرى وفظاعة ما ينتظره، ورغبته فى الرجوع إلى الدنيا؛ إصلاحاً للعمل، وتخلصاً مما يرى.

---

[1] المؤمنون: ٩٩، ١٠٠.

ولعله لم يصرح بمتعلق (ارجعون)؛ لظهوره ووضوحه فهو حتما يريد الرجوع إلى دنياه، وأيضا لضيق المقام وشدة ما هو فيه من الخوف والفزع، مما يجعله يعتمد الإشارة عن الإطالة، ويؤثر من الكلمات أوجزها، ويسقط من الكلام ما ينم به السياق.

ثم لنتأمل تلك الواو فى (ارجعون) وما فيها من تعظيم للمخاطب -جل شأنه-، فقد خاطب الكافر المتمنى ربه -سبحانه- بصيغة الجمع، على حدّ قول الشاعر:

ألا فارحمونى يا إله محمد ... فإن لم أكن أهلاً فأنت له أهل

وهذا التعظيم من المتمنى لربه وراءه استعطاف واعتراف بين يدى الأمنية؛ طمعا فى رحمة الله – تعالى- عساه أن يرده إلى دار العمل.

إن الكافر يتمنى الرجوع إلى الدنيا؛ لتدارك ما فاته من الطاعات المؤدية إلى النجاة من العذاب، وإيثار صيغة الأمر (ارجعون) فيه طمع فى المتمنَّى، فتلك أُمنية مستحيلة الحصول بعيدة المنال، ولكن الكافر أبرزها فى صورة الأمر؛ إظهارا للمستحيل فى صورة الأمر المرجو الحصول المطموع فى نيله، يقول الزمخشرى: "(ارجعون) خطاب الله بلفظ الجمع للتعظيم كقوله: فإن شئت حرمت النساء سواكم، وقوله: ألا فارحمونى يا إله محمد، إذا أيقن بالموت واطلع على حقيقة الأمر أدركته الحسرة على ما فرّط فيه من الإيمان والعمل الصالح فيه فيسأل ربه الرجعة"[1]، ويقول القرطبى: "تمنى الرجعة كى يعمل صالحا فيما ترك".[2]

وقد جاء جواب تلك الأمنية بما يخيب آمال المتمنى، ويجسد لديه شعور الأسى والحزن واليأس والندم: (كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون).

يقول الزمخشرى: "(كلا) ردع عن طلب الرجعة، وإنكار واستبعاد، والمراد من الكلمة: الطائفة من الكلام المنتظم بعضها من بعض، وهى قوله:(لعلى أعمل صالحا فيما تركت)، (هو قائلها) لا محالة، لا يخليها ولا يسكت عنها؛ لاستيلاء الحسرة عليه وتسلط الندم، أو هو قائلها وحده لا يجاب إليها ولا تسمع منه، (ومن ورائهم برزخ) والضمير للجماعة أى: أمامهم حائل بينهم وبين الرجعة إلى يوم البعث، وليس المعنى:

---

(1) الكشاف: جـ٣، صـ٢٠٢، ٢٠٣.

(2) الجامع لأحكام القرآن: حـ٧، صـ٤٥٤٢.

أنهم يرجعون يوم البعث، وإنما هو إقناط كلى؛ لما علم أنه لا رجعة يوم البعث إلا إلى الآخرة".[١]

ومن تمنى الرجوع إلى الدنيا: قوله -تعالى- على ألسنة المجرمين يوم القيامة: (وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ)[٢] .

فالأية الكريمة تصور ما يعترى المجرمين يوم البعث والحساب من ذل وانكسار وحسرة وندم، فقد أبصروا صدق ما كانوا يكذبون، وسمعوا حقيقة ما كانوا ينكرون، وها هم أولاء يجأرون بتلك الأمنية: (فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون) إن المجرمين يتمنون الرجوع إلى الدنيا؛ ليعملوا عملاً خلاف ما كانوا يعملون، لقد خاب سعيهم، وأصبح عملهم الذى عملوه فى الدنيا وظنوه نافعاً: هباء منثوراً لا يغنى عنهم من العذاب شيئا، ومن هنا يتمنون الرجوع ليعملوا عملا صالحا يتقون به العذاب، وهيهات هيهات الرجوع، فما أُمنيتهم هذه سوى صرخة الفزع، وحيرة المستغيث الذى يبحث عن سبيل للهرب من هول ما يرى.

وقد أبرزوا أُمنيتهم المحالة فى صورة الأمر الممكن الوقوع الجائز الحصول، ووراء ذلك ما وراءه من الطمع فى تحقيق تلك الأمنية وشدة الاهتمام بها والمبالغة فى حصولها، وقد مهدوا لها بهذا النداء (ربنا) أى: المحسن المتفضل، وقد حذفوا أداة النداء؛ تقرباً واستعطافاً، ثم هذا الخبر: (أبصرنا وسمعنا) الذى يقصد به الاعتراف بما كانوا عليه فى الدنيا من التعامى عن الحق، وصم الآذان عن سماع الرسل، وهذا الاعتراف ينم بالاعتذار والاسترحام، ولنتأمل هذا الوعد المؤكد (إنا موقنون) أى: إيقاناً ثابتاً مؤكداً بأننا سنعمل صالحاً إن نلنا أُمنية الرجوع، وفى هذا الوعد مبالغة فى الطمع فى تحقيق تلك الأُمنية.

وإذا أردنا أن نعرف مدى فزع المجرمين ومنتهى ما هم فيه من كرب جعلهم شديدى التعلق بأُمنيتهم؛ طمعاً فى حصولها فلننظر إلى نظم الآية الذى وردت فيه تلك الأمنية التى تنبئ عن حيرة المجرمين وفزعهم واضطرابهم، فالآية تبدأ فى تصوير

---

[١] الكشاف: جـ٣، صـ٢٠٣.

[٢] السجدة: ١٢.

حال المجرمين بهذا الشرط (لو) الذى حذف جوابه حذفاً يرادفه أن تذهب نفس السامع كل مذهب فى تصور فظاعة حالهم وهول موقفهم عند ربهم، وفى توجيه الخطاب لغير معين (ولو ترى) إفادة لتناهى حالهم من فزع واضطراب وحسرة وندم فى الظهور والوضوح حتى لا يختص به مخاطب دون غيره، والمراد : لو ترى يا من تصح منه الرؤية فى ذلك اليوم من أحوال المجرمين ، لرأيت أمراً مهولا فظيعاً، يقول الألوسى: "والخطاب فى (ترى) لكل أحد ممن تصح منه الرؤية، إذ المراد: بيان كمال سوء حالهم وبلوغها من الفظاعة إلى حيث لا يختص استغرابها واستفظاعها براء دون راء ممن اعتاد مشاهدة الأمور البديعة والدواهى الفظيعة، بل كل من تتأتى منه الرؤية يتعجب من هولها وفظاعتها، وقيل لأن القصد إلى بيان أن حالهم قد بلغت من الظهور إلى حيث يمتنع خفاؤها البتة فلا يختص برؤيتها راء دون راء، والجواب المقدر أوفق بما ذكر أولاً، والفعل منزل منزلة اللازم فلا يقدر له مفعول، أى: لو تكن منك رؤية فى ذلك الوقت لرأيت أمراً فظيعاً".[١]

والمجرمون هم الذين حكى الله -تعالى- قولهم قبل هذه الآية (أإذا ضللنا فى الأرض أإنا لفى خلق جديد)[٢]، وذكرهم بعنوان الإجرام؛ إظهار فى مقام الإضمار؛ لقصد التسجيل عليهم بأنهم فى قولهم هذا مجرمون، والناكس: المطأطئ رأسه، ونَكَسَ رأسه: إذا طأطأه من ذل، ونكس رأسه: أماله[٣]، ونَكسُ الرءوس: كناية عن الذل والندم، فهم يلاقون من التقريع والإهانة ما يملأ نفوسهم خزياً وحسرة وندماً مما ينعكس على ظواهرهم وبالأخص رءوسهم.

وحذف مفعول (أبصرنا وسمعنا)؛ للتعميم ولدلالة المقام عليه "أى: أبصرنا ما كنا نكذب، وسمعنا ما كنا ننكر...،(إنا موقنون)، أى: قد زالت عنا الشكوك الآن، وكانوا يسمعون ويبصرون فى الدنيا، ولكن لم يكن لهم تدبر، وكانوا كمن لا يبصر ولا يسمع، فلما تنبهوا فى الآخرة صاروا حينئذ كأنهم سمعوا وأبصروا...،فهذا اعتراف منهم، ثم طلبوا أن يردوا إلى الدنيا؛ ليؤمنوا".[٤]

---

[١] روح المعانى: جـ٢١، صـ١٩٣.

[٢] السجدة: ١٠.

[٣] القاموس المحيط: مادة (نكس) ، جـ٢، صـ٢٥٦، ولسان العرب: مادة (نكس) ، جـ٦، صـ٢٤١.

[٤] الجامع لأحكام القرآن: جـ٨، صـ٥١٧٧، ٥١٧٨.

لقد أبصروا حين لا ينفعهم الإبصار، وسمعوا حين لا ينفعهم السماع، وتمنوا الرجوع بصيغة الأمر؛ طمعاً فى حصوله، ولات حين رجوع.

ويبدو واضحاً أن آية السجدة تصور ما يحدث لجماعة المجرمين، فهم مجرمون بصيغة الجمع، وناكسو رءوسهم، وجميعهم يقول: (أبصرنا وسمعنا)، وجميعهم يتمنى أمنية الرجوع إلى الدنيا واعدين بالعمل الصالح، فكل شىء أضيف إلى جماعة المجرمين، بينما نجد أن آيتى سورة المؤمنون السابقتين الحديث فيهما مضاف إلى الإفراد: (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون، لعلى أعمل صالحاً فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها..)[١]، ومرجع التنوع من الإفراد إلى الجمع -والله أعلم-: أن الحديث فى سورة المؤمنون عن حال الكافر عند الموت حيث يصرخ متمنيا الرجوع إلى الدنيا، وهى صرخة خاصة به؛ لأن أوقات الموت -غالباً- ما تختلف من إنسان لإنسان، فلكل إنسان أجل، ولكل زمان كفاره ومجرموه، فلم يجتمعوا فى موت واحد حتى تجتمع كلمتهم، بخلاف ما فى سورة السجدة، فقد جمعهم الله -تعالى- ليوم الجمع فتوحدت أقوالهم واجتمعت كلمتهم، وعلا صياحهم بنفس الأمنية التى تمناها كل واحد منهم ساعة موته، ولكن الآن بصوت الجماعة، وهذا الترتيب لما يحدث للكفرة المجرمين يتناسب مع الترتيب الطبعى للأحداث، ومع ترتيب السور، فالمؤمنون أسبق من السجدة نزولاً وفى ترتيب المصحف، وقد تكاملت الآيات فى تصوير حسرة الكافر وندمه من بداية رحيله عن الدنيا وحتى يجتمع مع أمثاله يوم القيامة، استعدادا لمأواهم الأخير: جهنم وبئس المصير.

ثانياً: تمنى التأخير والإمهال:

قال -تعالى-: (وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ)[٢].

فالآية الكريمة خطاب لسيد المخاطبين: محمد -صلى الله عليه وسلم-، وأمر له بأن ينذر الناس ويخوفهم من يوم القيامة وما فيه من عذاب وأهوال، "وإنما خصهم بيوم العذاب -وإن كان يوم الثواب أيضا-؛ لأن الكلام خرج مخرج التهديد للعاصى".[٣]

---

[١] المؤمنون: ٩٩، ١٠٠.

[٢] إبراهيم: ٤٤.

[٣] الجامع لأحكام القرآن: جـ٦، صـ٣٦٠٧.

وفى تعريف المسند إليه (الذين ظلموا) بالموصولية، تسجيل عليهم بعنوان الظلم، وإشعار لهم بأن ظلمهم هو سبب ما ينالهم من شدة هذا اليوم وعذابه المدلول عليه بقولهم (ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل) إنهم لشدة العذاب وهوله يطلبون من ربهم التأخير والإمهال؛ ليتداركوا ما فرط منهم ويصلحوا مفاسد أعمالهم.

وقولهم: (أخرنا)، أمر أُريد به التمنى؛ لأن تأخيرهم وإمهالهم مقطوع باستحالته، وهم يعلمون ذلك ولكنه الخوف والفزع والحيرة والاضطراب، والأمر المقطوع باستحالته تستعمل فيه (ليت)، ولكن فرق بن أن يقال: ربنا ليتك تؤخرنا، وبين ما جاء عليه النظم الكريم حكاية على لسان الذين ظلموا: (ربنا أخرنا)، فالأمر وإن أفاد معنى (ليت) إلا أن هناك فرقا بينهما، هو أن الأمر يكون فى الأشياء الممكنة، وهذا هو سرّ عدول الذين ظلموا عن (ليت) الموضوعة لتمنى المستحيل إلى الأمر الممكن الحصول، إبرازا للمستحيل فى صورة الممكن المطموع فى حصوله ونيله.

وقد أتبعوا أُمنيتهم بفعلين وقعا فى جواب الأمر: (نجب دعوتك ونتبع الرسل) إمعانا منهم فى طلب التأخير، وطمعا فى الإمهال؛ لأجل إجابة دعوة الله -تعالى- واتباع رسله الكرام، والغرض من التمنى هنا: الاستعطاف، بسبب ما يرون من مجىء العذاب نحوهم بفزعه ورهبته.

يقول الزمخشرى: "معنى (أخرنا إلى أجل قريب): ردنا إلى الدنيا، وأمهلنا إلى أمدٍ وحدٍّ من الزمن قريب؛ نتدارك ما فرطنا فيه من إجابة دعوتك واتباع رسلك"[١]، ويقول القرطبى: "سألوه الرجوع إلى الدنيا حين ظهر الحق فى الآخرة"[٢].

وتمثل أُمنية الظالمين هنا طوراً جديدا يترتب على أحوالهم السابقة ويتناسق معها، ففى سورة المؤمنون جاء طلب الكافر عند الموت تمنيا للرجوع إلى الدنيا، لعله يعمل صالحا، (رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت)، وفى سورة السجدة تمنى المجرمون نفس الأُمنية، وهى الرجوع إلى الدنيا مع التأكيد على أنهم سيعملون صالحا، وفى الحالتين كان تمنى الرجوع غير محدود بزمن، أما فى سورة إبراهيم فأمنية الظالمين صرخة من أوشك على الوقوع فى العذاب، لأنهم رأوا العذاب مقبلا نحوهم

---

[١] الكشاف: جـ٢، صـ٥٦٥.

[٢] الجامع لأحكام القرآن: جـ٦، صـ٣٦٠٧.

يكاد يلتهمهم، ومن هنا حدث تطور فى أمنيتهم عما قبلها، فهم لا يتمنون الرجوع المطلق بل يتمنون تأخيرا مؤجلا بأجل قريب، وهذا التأخير القليل القريب كفيل بأن يجيبوا فيه دعوة الله -تعالى- ويتبعوا الرسل الكرام، أرأيت كيف أصابهم فزع إقبال العذاب نحوهم، فجعلهم يتنازلون عن طلب الإمهال المطلق إلى طلب القليل من الإمهال والتأخير؛ لإصلاح ما فات؟، ثم أرأيت كيف تتنامى الأحداث وتتكامل صورة الفزع فى نفوس المجرمين شيئا فشيئا تبعا لاقترابهم واقتراب العذاب منهم؛ حتى يقصر الكافر ويخاف المجرمون ويرتدع الظالمون.

ثالثا: تمنى الخروج من النار:

قال -تعالى-:)الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ، وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ)[1] هاتان الآيتان الكريمتان سبقتا بآيات فيها تصوير لأحوال أهل الجنة ومقالتهم، والآيتان هنا تصوران أحوال أهل النار ومقالتهم، فالذين كفروا لهم نار جهنم، وحالهم فيها أنهم (لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها) أى: لا يحكم عليهم فيها بموت فيستريحوا، ولا يخفف عنهم من عذابها شيئا، "ونصب (يموتوا) فى جواب النفى بإضمار (أن)، والمراد انتفاء المسبب لانتفاء السبب، أى ما يكون حكم بالموت، فكيف يكون الموت؟"[2]

وجملة(كذلك نجزى كل كفور) معناها: مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزى كل كفور، والكفور: المبالغ فى الكفر.

وجملة (ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل)، بيان لجملة (يصطرخون)، والاصطراخ: شدة الصياح، ويستعمل كثيراً فى الاستغاثة، لأن المستغيث يصيح غالبا، والصرخة: الصيحة الشديدة عند الفزع أو المصيبة، وقيل الصراخ: الصوت الشديد، ومن أمثالهم: كانت كصرخة الحبلى للأمر يفجؤك، والصارخ: المستغيث، والصراخ: صوت استغاثة، واصطرخ القوم: استغاثوا[3]، وهذا

---

[1] فاطر: ٣٦، ٣٧.

[2] روح المعانى: جـ٢٢، صـ٢٩٧.

[3] لسان العرب: مادة (صرخ) جـ٣، صـ٣٣.

اللفظ يصور أحوال أهل النار وأنهم لا يطيقون شدة عذابها وفظاعة أهوالها فيصطرخون مستغيثين.

والأمر فى قوله -تعالى-: (أخرجنا نعمل صالحا) أُريد به التمنى، وهو من جملة صراخهم من شدة ما هم فيه، وهم يعلمون أنه لا خروج لهم من النار ولا رجوع إلى الدنيا، ومع هذا أخرجوا أُمنيتهم المحالة فى صورة الأمر الممكن الوقوع طمعا فى الخروج من النار ولهفة للرجوع إلى الدنيا، وقولهم (نعمل صالحا) وعد بتدارك ما فاتهم من الأعمال الصالحة، ولإرادة الوعد جزم (نعمل) فى جواب الأمر، "وتقييد العمل الصالح بالوصف المذكور (غير الذى كنا نعمل) للتحسر على ما عملوه من غير الصالح، مع الاعتراف به والإشعار بأن استخراجهم؛ لتلافيه، فهو وصف مؤكد، ولأنهم كانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعا فكأنهم قالوا: نعمل صالحا غير الذى كنا نحسبه صالحا فنعمله، فالوصف مقيد"[١]

يقول الزمخشرى: "فإن قلت: هلا اكتفى بـ(صالحا) كما اكتفى به فى قوله -تعالى-: (فارجعنا نعمل صالحا)[٢]، وما فائدة زيادة (غير الذى كنا نعمل) على أنه يؤذن أنهم يعملون صالحا آخر غير الصالح الذى عملوه؟ قلت فائدته: زيادة التحسر على ما عملوه من غير الصالح مع الاعتراف به، وأما الوهم فزائل، لظهور حالهم فى الكفر وركوب المعاصى، ولأنهم كانوا يحسبون أنهم على سيرة صالحة، كما قال الله -تعالى-: (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا)[٣]، فقالوا: أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نحسبه صالحا فنعمله".[٤]

والرد على طلب الظالمين جاء فى قوله -تعالى-: (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير) والاستفهام: تقريرى بما بعد النفى، وفيه تقريع لهم وتوبيخ، أى: ألم نمهلكم ونعمركم عمراً يتمكن فيه من أراد التذكر من التذكر والتفكر، وجاءكم النذير، والفاء فى (فذوقوا) لترتيب الأمر بالذوق على ما قبله من التعمير ومجىء النذير، وحذف مفعول الأمر؛ لدلالة المقام عليه، أى: ذوقوا

---

[١] روح المعانى: جـ٢٢، صـ٢٩٨.

[٢] السجدة: ١٢.

[٣] الكهف: ١٠٤.

[٤] الكشاف: جـ٣، صـ٦١٥.

العذاب[١]، وفى أمرهم بإذاقة العذاب، ونفى النصير عنهم مع ذكرهم بعنوان الظلم تيئيس لهم من نيل أُمنيتهم التى أوردوها فى صورة الأمر؛ طمعاً فى حصولها.

ومن تمنى الخروج من النار قوله -تعالى-: (وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ، تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ، أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ، قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ، رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ، قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ)[٢] .

فالآيات الكريمة فيها تصوير لأحوال الخاسرين الذين خفت موازين أعمالهم فألقوا فى جهنم تلفح وجوههم النار، ويقرعون ويبكتون بقوله -تعالى-: (ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون)؟ فلا ينطقون إلا معتذرين مستعطفين: (ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين)، ثم يكررون نداء الله -تعالى- بصفة الربوبية حاذفين أداة النداء: (ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون)؛ استعطافا واستدرارا لإحسانه وعفوه، والأمر: (أخرجنا) أُريد به التمنى، وقد قدموا بين يدى أُمنيتهم اعترافا بقيام حجة الله -تعالى- عليهم، وإقرارا بأن شقوتهم غلبت عليهم وأنهم ضلوا عن الهدى والحق، وكأنهم بهذا الاعتراف يريدون أن يخففوا من غضب الجبار عليهم؛ حتى يحقق لهم أُمنية الخروج من النار، وإنما يطلبون الخروج من النار مع تيقنهم أن لا سبيل إلى ذلك؛ حيرة واضطرابا واستعطافاً.

يقول الألوسى: "(ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون)، أى: ربنا أخرجنا من النار، وارجعنا إلى الدنيا، فإن عدنا بعد ذلك إلى ما كنا عليه فيها من الكفر والمعاصى فإنا متجاوزون الحد فى الظلم؛ لأن اجتراءهم على هذا الطلب أوفق بكون ما قبله اعترافا، فإنه كثيراً ما يهون به المذنب غضب من أذنب إليه".[٣]

وفائدة جواب الشرط فى قوله ــ تعالى ــ: (فإن عدنا فإنا ظالمون) التأكيد على ظلمهم وإدانتهم،وقد أتوا فى الشرط بـ (إن) المفيدة للشك فى حصول شرطها، لأنهم غير متأكدين فى عدم العودة إلى سابق عهدهم، وحذف متعلق (عدنا) للعلم به، أى: إلى الكفر.

---

[١] ينظر: روح المعانى: جـ٢٢، صـ٢٩٩.

[٢] المؤمنون: ١٠٣-١٠٨.

[٣] روح المعانى جـ١٨، صـ١٠١.

وقد جاء جواب طلبهم بما يجسد لديهم الشعور بالندم واليأس من تحقيق أُمنيتهم: (قال اخسئوا فيها ولا تكلمون) وهذا الجواب قد أغلق أمامهم باب الكلام مع الله – تعالى– لقد سقطوا فى النار فتمنوا الخروج كما فى سورة فاطر واعدين أن يعملوا عملا صالحا، فكان جوابهم مزيدا من التقريع والتوبيخ: (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر...)، ثم فى سورة المؤمنون أعادوا الصياح تارة أُخرى متمنين الخروج فكان جوابهم مزيدا من القنوط واليأس، وفيه نهى لهم عن الكلام مع الله –تعالى–.

وما حدث لهم فى النار فى سورة فاطر والمؤمنون مترتب على أحوالهم السابقة، لقد تمنى كل واحد منهم عند موته الرجوع إلى الدنيا، ثم تمنوا جميعا يوم القيامة الرجوع إلى الدنيا، فلما رأوا العذاب مقبلا نحوهم تمنوا الإمهال، فلم تتحقق أمانيهم، فسقطوا فى النار تلفح وجوههم، فاستغاثوا متمنين الخروج، فبكتوا بأنهم أضاعوا عمرا طويلا بلا هداية، ثم استغاثوا ثانية متمنين الخروج شارطين على أنفسهم إن عادوا للكفر فهم الظالمون، فزجروا ونهوا عن كلام الله –تعالى–.

رابعًا: تمنى الماء والرزق :

قال –تعالى–: (وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ)[1].

فالآية الكريمة تصور معاناة أصحاب النار وهم يعذبون فيها، لقد اشتد عليهم وهجها ولفحها، وغصت بزقومها حلوقهم، وقطّعت بحميمها أمعاؤهم، وقد تمنوا الخروج مرارا فلم ينالوا سوى التبكيت والتقريع، وقد نهوا عن كلام الله –تعالى– واستعطافه، فتوجهوا بندائهم نحو أصحاب الجنة طالبين منهم أن يفيضوا عليهم من الماء أو مما رزقهم الله.

والأمر الذى ورد على ألسنة أهل النار فى قوله –تعالى–: (أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله) ليس على حقيقته من طلب الفعل على جهة الاستعلاء؛ لأن أصحاب النار أذل من أن يكون لهم استعلاء، وإنما أُريد بالأمر هنا: التمنى؛ لاستحالة حصول طلبهم وعزة مناله، وأصحاب النار يعلمون أن ما فى الجنة محرم عليهم، ولكنها الحيرة والتخبط من هول النار وفظاعتها، وكرب عذابها وشدته.

---

[1] الأعراف: ٥٠.

يقول الزمخشري: "وإنما يطلبون ذلك مع يأسهم من الإجابة إليه؛ حيرة في أمرهم"[١]، ويقول الدكتور/ محمد أبو موسى: "أصحاب النار يعلمون أن ما في الجنة محرم عليهم، ولكنهم لفرط ما هم فيه من الهول صاروا يطلبون ما لا سبيل إلى تحقيقه، ومثل هذا الأسلوب الصادر عن فقدان الوعي بالأشياء موحيا بذلك إلى حالة أو موقف مما نجد له مذاقا حسنا".[٢]

والفيض: حقيقته سيلان الماء وانصبابه بقوة، يقال: فاض الماء والدمع ونحوهما يفيض فيضا وفيوضة: أي كثر حتى سال على ضفة الوادي، وفاضت عينه تفيض فيضا: إذا سالت، وأفاض الماء على نفسه، أي: أفرغه، والفيض: النهر، ونهر فياض: أي كثير الماء، ويستعمل مجازا في الكثرة، ومنه في الحديث: (ويفيض المال حتى لا يقبله أحد)، ويجيء منه مجاز في السخاء ووفرة العطاء، ومنه في الحديث أنه قال لطلحة: (أنت الفياض)[٣].

فالفيض في الآية "إذا حمل على حقيقته كان أصحاب النار طالبين من أصحاب الجنة أن يصبوا عليهم ماء ليشربوا منه، وعلى هذا المعنى حمله المفسرون، ولأجل ذلك جعل الزمخشري[٤]عطف (مما رزقكم الله): عطفا على الجملة لا على المفرد، فيقدر عامل بعد حرف العطف يناسب ما عدا الماء، تقديره: أو اعطونا ونظّره بقول الشاعر، أنشده الفراء:

علفتها تبنا وماء باردا حتى شبت همّالة عيناها

تقديره: علفتها تبنا، وسقيتها ماء باردا، وعلى هذا الوجه تكون (مِنَ) بمعنى:بعض، أو صفة لموصوف محذوف تقديره: شيئا من الماء، لأن (أفيضوا) يتعدى بنفسه، ويجوز عندي: أن يحمل الفيض على معناه المجازي، وهو: سعة العطاء والسخاء من الماء والرزق، إذ ليس معنى الصبّ بمناسب، بل المقصود الإرسال والتفضل، ويكون العطف عطف مفرد على مفرد، وهو أصل العطف، ويكون سؤالهم من الطعام مماثلا لسؤالهم من الماء في الكثرة، فيكون في هذا الحمل تعريض بأن أصحاب الجنة أهل

---

[١] الكشاف: جـ٢، صـ١٠٨.

[٢] دلالات التراكيب: صـ٢٥٢، ٢٥٣.

[٣] لسان العرب: مادة (فيض) جـ٧، صـ٢١٠.

[٤] الكشاف: جـ٢، صـ١٠٨.

سخاء، وتكون (مِنَ) على هذا الوجه بيانية لمعنى الإفاضة، ويكون فعل (أفيضوا) منزلا منزلة الازم، فتعلق (من) بفعل (أفيضوا)[١].

وأيا ما كان طلب أصحاب النار قليلا أم كثيرا من الماء والرزق فهو دليل على حيرتهم وارتباكهم من هول ما يعانون، حيث يطلبون ما لا سبيل إلى نيله، ومن هنا جاءهم الجواب القاطع لأمانيهم المجسد لحسرتهم وندمهم فى قوله -تعالى-: (إن الله حرمهما على الكافرين).

خامساً: تمنى الموت والهلاك :

قال -تعالى: (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ، لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ، وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ)[٢].

فالآيات الكريمة فيها تصوير لأحوال المجرمين وهم يعذبون فى جهنم، وفيها بيان لشدة العذاب وتتابعه، وأنه لا يفتّر عنهم، أى: لا يخفف، ولا ينقص، فالفَتْرَة: الانكسار والضعف، وفَتَر الشيء والحرّ: سكن بعد حدّة ولان بعد شدة، وماء فاتر: بين الحار والبارد، وفتر الماء: سكن حرّه[٣]، فهم فى نار شديدة لا تضعف ولا ينكسر حرها، وأنهم فيها مبلسون، والمبلس: الساكت سكوت يأس من فرج، يقال: بلس الرجل: سكت، وأبلس من رحمة الله، أى: يئس وندم، وإبليس لعنه الله مشتق منه؛ لأنه أبلس من رحمة الله، أى: أُويس[٤].

وما هم فيه من شدة العذاب وتواليه مرجعه إلى ظلمهم أنفسهم، يقول ابن عاشور فى قوله -تعالى-: (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين): "جملة معترضة فى حكاية أحوال المجرمين قُصد منها نفى استعظام ما جُوزُا به من الخلود فى العذاب، ونفى الرقة لحالهم المحكية بقوله: (وهم فيه مبلسون)".[٥]

---

(١) التحرير والتنوير: جـ٨، صـ١٤٨، ١٤٩.

(٢) الزخرف: ٧٤-٧٧.

(٣) لسان العرب: مادة (فتر) ، جـ٥، صـ٤٣.

(٤) لسان العرب: مادة (بلس) ، جـ٦، صـ٢٩.

(٥) التحرير والتنوير: جـ٢٥، صـ٢٥٨.

وفى الآيات حكاية لندائهم: (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك) بصيغة الماضى (ونادوا) مع أنه مما سيقع يوم القيامة؛ تنزيلا للمستقبل منزلة الماضى فى تحقق وقوعه، "فإن قلت: كيف قال: (ونادوا يا مالك) بعدما وصفهم بالإبلاس؟ قلت: تلك أزمنة متطاولة وأحقاب ممتدة، فتختلف بهم الأحوال فيسكتون أوقاتا، لغلبة اليأس عليهم، وعلمهم أنه لا فرج لهم، ويُغَوِّثُون أوقاتا؛ لشدة ما بهم".[١]

والمُنادَى: (مالك)، "وهو اسم الملك الموكل بجهنم خاطبوه؛ ليرفع دعوتهم إلى الله -تعالى-؛ شفاعة...، وروى أن ابن مسعود قرأ: (ونادوا يا مالِ) بحذف الكاف على الترخيم، فذُكرت قراءته لابن عباس فقال: ما كان أشغل أهل النار عن الترخيم، قال فى الكشاف: {وعن بعضهم: حسن الترخيم أنهم يقتطعون بعض الاسم؛ لضعفهم وعظم ما هم فيه}[٢]، وأراد ببعضهم: ابن جنى فيما ذكره الطيبى: أن ابن جنى قال: وللترخيم فى هذا الموضع سرٌّ، وذلك أنهم لعظم ما هم عليه ضعفت وذلت أنفسهم وصغر كلامهم، فكان هذا من مواضع الاختصار".[٣]

ولقد أصاب ابن جنى فى تأويله لقراءة الترخيم، فالمجرمون لشدة ما هم فيه من عذاب وتألم تتقطع أنفاسهم، فيعجزون عن إتمام الكلام فيحذفون ما استطاعوا من أواخر الكلمات.

واللام فى قوله -تعالى-: (ليقض علينا ربك) لام الأمر، والقضاء بمعنى: الإماتة كقوله -تعالى-: (فوكزه موسى فقضى عليه)[٤]، "سألوا الله -تعالى- أن يزيل عنهم الحياة؛ ليستريحوا من إحساس العذاب...،فأُجيبوا بأنهم ماكثون، جواباً جامعا لنفى الإماتة ونفى الخروج، فهو جواب قاطع لما قد يسألونه من بعد".[٥]

وصيغة الأمر: (ليقض) التى آثرها المجرمون فى التعبير عن أُمنيتهم هى صرخة من استبد به هول العذاب فتمنى أن يتخلص منه بالموت، ولعلهم لم يصرحوا بالموت فيقولوا: ليمتنا ربك، خوفا من أن يعادوا بعد الموت إلى العذاب مرة أُخرى كما بعثوا من قبورهم بعد الموت، فعدلوا عنه إلى القضاء الذى لا يبقى لهم أثراً، فهو كأمنيتهم أن

---

(١) الكشاف: جـ٤، صـ٢٦٤.

(٢) الكشاف: جـ٤، صـ٢٦٤.

(٣) التحرير والتنوير: جـ٢٥، صـ٢٥٩، ٢٦٠.

(٤) القصص: ١٥.

(٥) التحرير والتنوير: جـ٢٥، صت٢٦٠.

يكونوا ترابا فى قول الله -تعالى- حكاية عنهم بصريح لفظ التمنى: (وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا)[١]، وإن كانت أمنيتهم بالقضاء عليهم خرجت فى صيغة الأمر؛ طمعا فى حصولها وتلهفا إلى نيلها.

وبعد: فقد تناسقت آيات هذا الفصل فى تصوير أحوال المجرمين بداية من مجىء الموت لكل واحد منهم، فيكره الموت ويتمنى الرجوع إلى الدنيا، ولكن هيهات هيهات أن يرجع: (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ)[٢]، فلما تجمع المجرمون يوم الجمع فى ذل وانكسار جأروا بنفس الأمنية: (رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ)[٣]، فلما رأوا العذاب مقبلا عليهم تمنوا التأخير والإمهال: (رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ)[٤]، فلما أحاطت بهم جهنم ولفح العذاب وجوههم تمنوا الخروج من النار: (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ)[٥]، (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ)[٦]، فلما يئسوا من الخروج تمنوا الماء أو الرزق: (وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ)[٧]، فلما يئسوا من عطية أهل الجنة، ونُهوا عن كلام الله -تعالى- توجهوا إلى خازن النار متمنين أن يُقضى عليهم: (وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ)[٨]، فأُجيبوا بأنهم ماكثون، جوابا جامعا لنفى الإماتة ونفى الخروج، ويا للمفارقة بين أول أمانيهم وهى كراهية الموت وتمنى الرجوع، وآخر أمانيهم وهى تمنى الموت والهلاك الذى لا أثر لهم بعده؛ هربا من شدة العذاب وفظاعته.

ويبدو فى هذه الآيات التنوع فى وصف الكافرين، فتارة وُصفوا بالمجرمين، وتارة وصفوا بالظالمين، وتارة وصفوا بالخاسرين، وتارة وصفوا بالكافرين، وتارة وصفوا بأنهم أصحاب النار؛ وهذا التنوع فيه استقصاء لأوصافهم التى اتصفوا بها فى دنياهم فاستحقوا بسببها العذاب فى أُخراهم.

---

(١) النبأ: ٤٠.

(٢) المؤمنون: ٩٩.

(٣) السجدة: ١٢.

(٤) إبراهيم: ٤٤.

(٥) فاطر: ٣٧.

(٦) المؤمنون: ١٠٧.

(٧) الأعراف: ٥٠.

(٨) الزخرف: ٧٧.

كما يبدو التنوع واضحا فى تعليل طلب الرجوع إلى الدنيا والخروج من النار، فتمنى الرجوع تارة يكون رجاء أن يعمل المتمنى عملا صالحا كما فى سورة المؤمنون: (لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ)[١]، وتارة يكون وعدا مؤكدا بالعمل الصالح كما فى سورة السجدة: (فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ)[٢]، وتارة يتمنون التأخير والإمهال بدلا من الرجوع كما فى سورة إبراهيم: (رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ)[٣] وهو تنوع فى الطلب استلزمه المقام الذى حدث فيه التمنى، فطلب الرجوع وتمنيه كان عند الموت كما فى المؤمنون، وكان فى موقف الحساب كما فى السجدة، وهذان الموقفان قبل مجيء العذاب ومن هنا كانت علة الرجوع الغير محدودة بوقت فى السورتين هى عمل الصالحات.

والأمر فى سورة إبراهيم يختلف عنه فى سورتى المؤمنون والسجدة، إنهم لا يتمنون رجوعا مطلقا وإنما يتمنون تأخيراً يسيرا ووقتا قليلا من الدنيا والعلة أكبر من سابقتها، إذ هى إجابة الدعوة واتباع الرسل، وهى أكبر وأشمل من عمل الصالحات، وإن دل هذا التنوع على شيء فإنما يدل على تطور أحوالهم إلى الأسوأ والأفظع ، لأنهم فى إبراهيم، قد جاءهم العذاب، وهو أشد من موقف الحساب، وموقف الحساب أشد من موقف الموت.

وتتغير الأمانى تبعا لتنوع المواقف، فتمنى الرجوع والتأخير كان فى مقام الموت والحساب، أما وقد أُدخلوا النار فأُمنيتهم هى الخروج من السعير، والعلة أيضا هى العمل الصالح: (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ)[٤]، وقد تكون العلة هى الشرط بعدم العودة إلى الكفر والإجرام: (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ)[٥].

وبعد اليأس من الخروج من النار والسعير يأخذ التمنى منحًى آخر، فنرى أصحاب النار يتجهون نحو أصحاب الجنة متمنين بعض الماء أو بعض الرزق، والعلة مطوية لأنها لوضوحها أشهر من أن تذكر، فلما أُجيبوا بما فيه يأسهم، تمنوا موتا لا يبقى لهم أثراً، والعلة مفهومة، وهى التخلص من العذاب: (وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ)[٦].

---

(١) المؤمنون: ٩٩.

(٢) السجدة: ١٢.

(٣) إبراهيم: ٤٤.

(٤) فاطر: ٣٧.

(٥) المؤمنون: ١٠٧.

(٦) الزخرف: ٧٧.

وهذا التنوع فى علل تمنى المجرمين، يصور مدى حيرتهم وارتباكهم وشدة معاناتهم، فقد طرقوا كل باب للاستعطاف، واتجهوا كل وجهة للاستشفاع، وسلكوا كل مسلك يؤدى بهم خارج النار، فما نالوا سوى مزيدا من اليأس ومزيدا من التوبيخ والزجر.

وحتى الرد على أمانيهم تنوع تبعا لتنوع أمانيهم وعللهم، فتارة يسكت النظم الكريم عن إجابتهم، كما فى سورة المؤمنون والسجدة، وتارة يقرعون ويبكتون بما كانوا ينكرون فى دنياهم ويقسمون على نفيه كما فى قوله -تعالى-: (أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ)[١]، وتارة يبكتون ويقرعون بأنهم أُمهلوا كثيراً فلم يؤمنوا كما فى قوله -تعالى-: (أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ)[٢]، وتارة يزجرون وينهون عن كلام الله -تعالى- كما فى قوله -تعالى-: (قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ)[٣]، وتارة عند تمنى الماء أو الرزق من أهل الجنة يقال لهم: (إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ)[٤]، وتارة يقال لهم: (إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ)[٥]، وذلك عند تمنى الموت والهلاك.

فذاك التنوع فى أمانى الكافرين وعللهم يقابله هذا التصرف فى إجابتهم والرد عليهم، مما يجسد لديهم الشعور باليأس ويزيدهم ندما وحسرة على ما فرطوا، فيكون عذابا فوق العذاب وكربا على الكرب؛ بلاغاً للناس حتى يحذروا، وزجرا للمجرمين حتى يرتدعوا، كل هذا نسجه الذكر الحكيم فى بيان معجز وبلاغة عالية، فسبحان من هذا كلامه.

---

(١) إبراهيم: ٤٤.

(٢) فاطر: ٣٧.

(٣) المؤمنون: ١٠٨.

(٤) الأعراف: ٥٠.

(٥) الزخرف: ٧٧.

المبحث الخامس
التمنى بطريق الترجى

الأصل فى (لعل) أن يرجى بها ما هو قريب الحصول، وقد تأتى مفيدة للتمنى، كما فى قوله -تعالى-: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ)[١].

فبلوغ أسباب السموات للاطلاع على إله موسى -سبحانه وتعالى- من الأمور المستحيلة التى لا يمكن حصولها، ولا يستطيع إنسان بلوغها، وتلك الإحالة تقتضى استعمال أداة التمنى (ليت)، ولكن فرعون -لعنه الله- آثر حرف التوقع (لعل) بدلا من حرف التمنى؛ لغرض بلاغى هو: إبراز المتمنى المحال فى صورة الممكن القريب الحصول الجائز الوقوع ؛ وذلك لكمال العناية به وشدة الرغبة فى وقوعه ونيله.

ويبدو فى هذا إدلال فرعون بقوته وقدرته على بلوغ أسباب السموات، ولم لا؟ وهو الذى يدعى الألوهية ويوهم قومه أنه ربهم الأعلى، "إن هذا الترجى تمن فى الحقيقة، لكن أخرجه اللعين هذا المخرج تمويها على سامعيه"[٢]

يقول الزمخشرى: "وقرىء (فأطّلعَ) بالنصب على جواب الترجى تشبيها للترجى بالتمنى"[٣]، ويقول الجزولى: وقد أشربها معنى (ليت) من قرأ: (فأطلعَ) نصباً[٤].

ويقول الدكتور محمد أبو موسى: "وقد يتمنى بـ(لعل) كما فى قوله -تعالى-: (لعلى أبلغ الأسباب، أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا)، قرأ عاصم فى رواية حفص بالنصب (فأطّلعَ)، وهو لا يكون إلا إذا كانت (لعل) بمعنى: (ليت)، فهذه القراءة تجعل الرجاء تمنياً، وحينئذ تفيد أن إحساس فرعون باطّلاعه على إله موسى أمر مستبعد، وهكذا يعتقد، لأنه لا يؤمن بأن لموسى إلها، ولأنه قال: (وإنى لأظنه كاذبا).

---

[١] غافر: ٣٦، ٣٧.

[٢] روح المعانى جـ٢٤، صـ٦٩.

[٣] الكشاف جـ٤، صـ١٦٧.

[٤] ينظر: الجنى الدانى فى حروف المعانى: صـ٥٨١.

وجاء التمنى فى عبارة الرجاء التى تكون للأمر المتوقع، لأن فى ذلك إيهاما بأنه جاد فى التعرف على حقيقة ما يدعو إليه موسى، فهاهو ذا يبلغ أسباب السموات ويجد فى أن يطلع على حقيقة الأمر، وكأن وراء ذلك إدلالاً بقوة موقفه، وأنه إنما يفعل ذلك ليبطل ما قد يطوف فى الأوهام، أن فى الكون إلها غيره، وهذا واضح جدا فى قراءة الرفع، لأن الأسلوب فيها أسلوب رجاء، ولا معنى للتوقع إلا على هذا الوجه".[١]

وإذا نظرنا فى نظم الآية نجدها تصور عتو فرعون وتمرده واقتراءه فى تكذيبه موسى -عليه السلام-، وكيف أنه أمر وزيره هامان بأن يبنى له صرحا، والصرح: بيت واحد يبنى منفردا ضخما طويلا فى السماء، وقيل: هو القصر، وقيل: هو كل بناء عالٍ مرتفع[٢]

وفى إسناد البناء إلى هامان إشارة إلى مبالغة فرعون فى حصول الصرح وشدة اهتمامه بالبناء، حيث يبنى الصرح بسبب أمر هامان، لأن هامان لا يبنى وإنما يبنى العمال الصرح بأمره، ففى الكلام مجاز عقلى علاقته السببية.

وأسباب السموات: طرقها وأبوابها ومراقيها، وقيل: أسباب السموات نواحيها وما يؤدى إليها، وكل ما أداك إلى شيء فهو سبب إليه[٣]، يقول الزمخشرى: "فإن قلت: ما فائدة هذا التكرير، ولو قيل: لعلى أبلغ أسباب السموات لأجزأ؟ قلت: إذا أبهم الشيء ثم أوضح كان تفخيما لشأنه، فلما أراد تفخيم ما أمّل بلوغه من أسباب السموات أبهمهما ثمّ أوضحهما، ولأنه لما كان بلوغهما أمراعجباً أراد أن يورده على نفس متشوقة؛ ليعطيه السامع حقه من التعجب، فأبهمه ليشوق إليه نفس هامان، ثم اوضحه"[٤]

وبلوغ أسباب السموات غير ممكن، لكن فرعون أبرز ما لا يمكن فى صورة الممكن تمويها على سامعيه، وطمعا فى حصوله، ولما قال: (فأطلع إلى إله موسى) كان ذلك إقرارا بإله موسى، فاستدرك هذا الإقرار بقوله: (وإنى لأظنه كاذبا) أى: فى ادعائه إلها دونى، وإنما أفعل ما أفعل لإزاحة العلة، وهذا يوجب شك فرعون فى أمر الله، وقيل: إن الظن بمعنى اليقين، أى: وأنا أتيقن أنه كاذب، وإنما أقول ما أقول؛ لإزاحة الشبهة ممن لا يتيقن ما أتيقنه.[٥]

والله أعلى وأعلم

---

[١] دلالات التراكيب: صـ٢٠٢.

[٢] لسان العرب، مادة (صرح) ، جـ٢، صـ١١.

[٣] لسان العرب: مادة (سبب) ، جـ١، صـ٤٥٨.

[٤] الكشاف جـ٤، صـ١٦٧.

[٥] ينظر: البحر المحيط: جـ٩، صـ٢٥٩، والجامع لأحكام القرآن جـ٨، صـ٣١٥.

الخاتمة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على من ختمت به الرسالات سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه.....، وبعد

فقد تناول البحث فى المباحث السابقة التحليل البلاغى لأسلوب التمنى بغير (ليت) فى الذكر الحكيم، بما يكشف عن خصائصه اللغوية، وأسراره البلاغية، ويبين ما فيه من تشابه وتنوع.

وقد بدأ البحث بمقدمة فيها أهمية الموضوع والدافع إليه، ثم المبحث الأول: وفيه مفهوم التمنى وقيمته البلاغية، ثم المبحث الثانى: وفيه الآيات التى جاء التمنى فيها بطريق الاستفهام، ثم المبحث الثالث: وفيه الآيات التى جاء التمنى فيها بطريق الشرط، ثم المبحث الرابع: وفيه الآيات التى جاء التمنى فيها بطريق الأمر، ثم المبحث الخامس: وفيه الآية التى جاء التمنى فيها بطريق الترجى.

وبعد هذه الرحلة العطرة فى رحاب (بلاغة التمنى بغير (ليت) فى الذكر الحكيم)، نقف؛ لنرصد الحقائق التالية:

التمنى فى الذكر الحكيم نهج متميز فى بنائه المحكم، وصياغته الدقيقة التى تقوم على الإيجاز البديع، بطيِّ التفصيلات التى لا يتعلق بها غرض؛ إعتمادا على السياق ووحى الألفاظ؛ وهذا راجع إلى أن التمنى طلب نفسى يصف آمالا حبيسة، ورغائب لا سبيل إلى تحقيقها، ولو كانت هذه الرغائب ممكنة فإنها عند المتمنِّى وفى حس نفسه مما يبعد تحقيقها، وهذه الرغائب وتلك الآمال غالبا ما يصحبها ضيق المقام أو ضيق النفس مما يجعل الأمانى موجزة العبارات دقيقة الصياغة.

التمنى فى الذكر الحكيم من الأساليب التى تصور الحالة النفسية للمتمنِّى، والأغراض التى يرمى إليها، من الشكوى والاستعطاف والاعتذار، وما يجده من راحة النفس، فما التمنى سوى زفرات يطلقها مهموم يائس، ونفثات مصدور يروح بها عن نفسه.

التمنى فى الذكر الحكيم يتنوع؛ تبعا لتنوع الناطقين به، فتارة يأتى على ألسنة المؤمنين، وتارة يأتى على ألسنة الكافرين، ، وتارة يكون من أمانى الدنيا، وتارة يكون من أمانى الآخرة، وأكثره ورودا ما كان على ألسنة الكافرين يوم القيامة.

تعددت مظاهر التنوع فى مطلوب المتمنين، فتارة تتعلق أمانيهم بما مضى زمانه وفات وقته، فتكون محالة الحصول، وتارة تتعلق بالحال والاستقبال، فتكون فى نظر أصحابها بعيدة المنال، وهى عندما تكون محالة ، تكون ندما على فوات وقت الطاعة، أو طلبا للشفعاء، أو طلبا للإنظار والإمهال، أو طلبا للرد الى الدنيا أو طلبا للخروج من النار، أو طلبا للهلاك والموت؛ تخلصا من العذاب الشديد...، إلى غير ذلك من الأمانى الكثيرة المتنوعة.

تنوع التمنى فى الذكر الحكيم من حيث صياغته الدقيقة وبنائه المحكم وطرق أدائه العديدة، فتارة يؤدى بطريق الاستفهام، وتارة يُؤدى بطريق الشرط ، وتارة يُؤدى بطريق الأمر، وتارة يُؤدى بطريق الترجى، وهو عندما يُؤدى بغير أداته الموضوعة له يكون له مذاق خاص، يجعل التمنى بطريق الاستفهام والأمر والترجى، فى صورة الممكن المطموع فى حصوله، ويجعله إذا أُدّى بطريق الشرط أكثر بعدا وأوغل فى الإحالة.

سلك النظم الكريم مسلكا معجزا فى حكاية أمانى الكافرين المكررة يوم القيامة، وذلك بتلوين الأسلوب وتنويع طرُق التمنى، وإضافة أحوال لم تذكر، وتفصيل وقائع لم تفصل، طبقا لمقتضيات المقام، وبذلك تبدو الأمنية جديدة فى كل مرة فى شكلها ومضمونها.

وبعد: فهذا جهدى فيما قصدت إليه من الكشف عن بلاغة التمنى بغير (ليت) فى الذكر الحكيم، فإن كنت قد أصبت ووفقت فيما قصدت فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وإن تكن الأخرى فحسبى أننى بذلت جهدى قدر طاقتى، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها، والكمال لله وحده، وصدق القائل:

من الذى ما ساء قط ومن له الحسنى فقط

وفى الختام نتوجه إلى الله العلى القدير أن يجعل عملنا خالصا لوجهه الكريم (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين).

إبراهيم حسن أحمد

أهم المصادر والمراجع

- الإتقان فى علوم القرآن- السيوطى، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التـراث، القاهرة.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا لكتاب الكريم - أبو السعود العمادى، دار إحياء التراث العربى، بيروت.
- أسباب النزول - أبو الحسن على بن أحمد الواحدى النيسابورى، تحقيق/ أيمن صالح شعبان، الطبعة الرابعة، دار الحديث، القاهرة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- أساليب الاستفهام فى القرآن الكريم - الدكتور/ بسيونى عبد الفتـاح فيـود، رسـالة دكتوراه مخطوطة فى كلية اللغة العربية فى القاهرة تحت رقم (٢٠٣٣) .
- الأطول لعصام الدين، ط اسطنبول.
- الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال - ابن المنير الاسكندرانى، دار الكتاب العربى، بيروت، بدون تاريخ.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل - القاضى البيضاوى، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.
- الإيضاح شرح تلخيص المفتاح - الخطيب القزوينى، تعليق/ عبد المتعال الصعيدى، طبعة محمد على صبيح، القاهرة، ١٣٩٢هـ .
- البحر المحيط - أبو حيان الأندلسى، دار الفكر، بيروت، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- البرهان فى علوم القرآن - بدر الدين الزركشى ، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة مصطفى الحلبى، القاهرة، ١٣٩١هـ - ١٩٧٢م.
- التفسير البلاغى للاستفهام فى القرآن الحكيم - الدكتور/ عبد العظـيم المطعنـى، ط أولى ١٤٢٠- ١٩٩٩، مكتبة وهبة القاهرة.
- التحرير والتنوير - سماحة الشيخ/ الطاهر بن عاشور، طبعة الدار التونسية للنـشر، بدون تاريخ.
- تفسير القرآن العظيم- أبو الفداء بن كثير القرشى الدمشقى، دار الريان للتراث، القاهرة.
- تفسير النسفى - الإمام النسفى، دار احياء الكتب العربية، عيسى الحلبى، القاهرة.
- تلخيص المفتاح - الخطيب القزوينى، (ضـمن شـروح التلخـيص) دار الـسرور، بيروت، بدون تاريخ.
- الجامع لأحكام القرآن - أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى، دار الريان للتراث، القاهرة، بدون تاريخ.

- الجنى الدانى فى حروف المعانى – الحسن بن القاسم المرادى،تحقيق فخر الدين قباوة، والأستاذ/ محمد نديم فاضل، المطبعة الصليبية.
- حاشية الشيخ زادة على تفسير البيضاوى، طبعة المكتبة الإسلامية،تركيا، بدون تاريخ.
- حاشية الدسوقى على المختصر (ضمن شروح التلخيص) دار السرور، بيروت، بدون تاريخ.
- حاشية السيد على المطول – السيد الشريف الجرجانى، مطبعة أحمد كامل، القاهرة، ١٣٣٠هـ .
- دلالات التراكيب – الدكتور/ محمد أبو موسى، الطبعة الثانية،مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م.
- روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى – السيد محمود الألوسى البغدادى، دار الفكر بيروت، ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.
-شرح شذور الذهب – ابن هشام الأنصارى، تحقيق/ محمد محى الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت.
- علم المعانى – الدكتور/ بسيونى عبد الفتاح فيود، الطبعة الأولى، ١٤٥٨هـ ١٩٨٨م.
- علم المعانى – الدكتور/ عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.
- علم المعانى – الدكتور/ فريد محمد بدوى النكلاوى وآخرون، بدون ناشر.
- عناية القاضى وكفاية الراضى– شهاب الدين الخفاجى، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.
- فتح القدير – الشوكانى، طبعة أولى، مصطفى الحلبى، القاهرة.
- الفتوحات الإلهية– سليمان بن عمر العجيلى ا لشهير بالجمل، مطبعة عيسى الحلبى، القاهرة.
- القاموس المحيط– محمد بن يعقوب الفيروزابادى، دار العلم للجميع، بيروت بدون تاريخ.
- الكشاف – أبو القاسم جار الله الزمخشرى، دار الكتاب العربى، بيروت، بدون تاريخ.
- لسان العرب– جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، الطبعة الثالثة، دار صادر، بيروت.
- مجمع البيان – الطبرسى، دار المعرفة، بيروت.
- المختصر على التلخيص – سعد الدين التفتازانى، (ضمن شروح التلخيص)، دار السرور، بيروت، بدون تاريخ.
- المطول على التلخيص – سعد الدين التفتازانى، مطبعة أحمد كامل، ١٣٣٠.

- معجم البلاغة العربية - الدكتور/ بدوى طبانة، منشورات جامعة طرابلس، ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م.
- مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب - ابن هشام الأنصارى، تحقيق/ مازن المبارك، د/ محمد على حمد الله، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٥م.
- المقتضب - أبو العباس المبرد، تحقيق/ محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت.
- من أسرار التعبير بالحروف المشبهة بالفعل - الدكتور/ هاشم محمد هاشم،الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.
- من أسرار حروف الجر فى الذكر الحكيم - الدكتور/ محمد الأمين الخضرى، الطبعة الأولى، مكتبة وهبة، ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.
- مواهب الفتاح شرح تلخيص المفتاح - ابن يعقوب المغربى، (ضمن شروح التلخيص)، دار السرور، بيروت، بدون تاريخ.
- نداء غير العاقل فى القرآن - الدكتور/ أبو زيد محمد شومان، مطبعة الأمانة.
- نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور - البقاعى، دار الكتاب الإسلامى، القاهرة، بدون تاريخ.